

چوتھ

هرمن ودروتيه

محرر
لوسر

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



AUB. LIBRARY

كتاب الفقه والحديث

فرمان ودر ویتسه

Hermann und Dorothea

1847

1847

1847

1847

1847

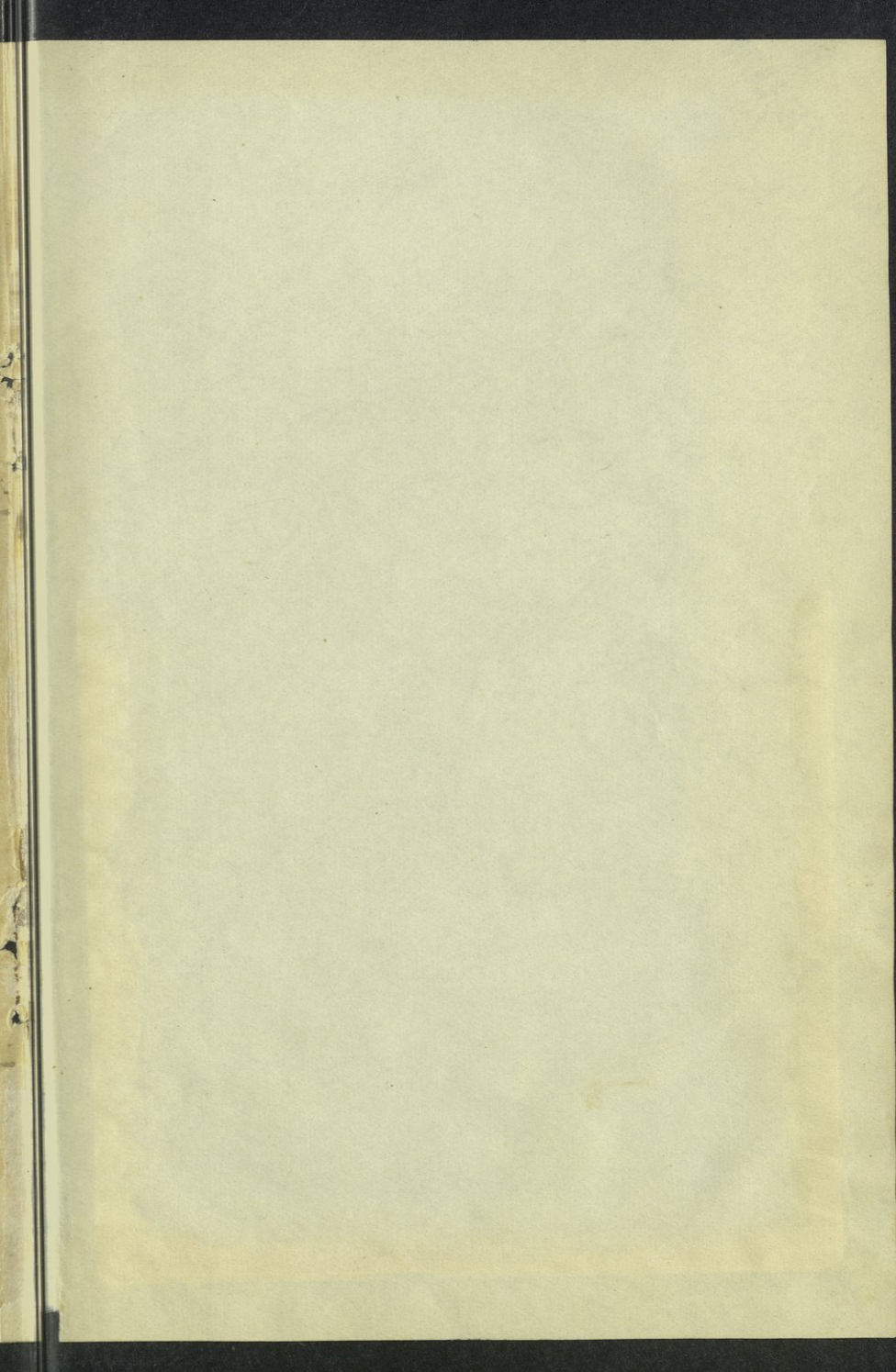
1847

1847

1847

1847

1847



مُجْمَعُ التَّأْلِيفِ وَالترجمة والنسرة

هرمن ودروتيه

Hermann und Dorothea

....

للشاعر الكبير

يوهان ولفجانج فون جوته

GOETHE

....

نقلها عن الألمانية

محمد عوض محمد

....

ومقدمة الكتاب للأستاذ الدكتور طه حسين

....

طبع بالقاهرة

بمطبعة فاروق ٢٨ شارع المداينغ

١٩٣٣

٤٤١.١٣١٥٨:٥٣



مقدمة

أُتيح لي منذ أكثر من عشر سنين أن أقدم الى قراء العربية في الشرق جوته حين قدمت اليهم ترجمة صديقي الزيات لآلام فرتر . وأُتيح لي بعد ذلك بأعوام أن أتحدث الى قراء اللغة العربية في الشرق عن جوته مرة أخرى حين قدمت اليهم ترجمة صديقي عوض لقصة فاوست . ويتاح لي اليوم أن أتحدث الى قراء العربية في الشرق مرة ثالثة عن جوته وأنا أقدم اليهم ترجمة صديقي عوض لهذه الآية الخالدة من آيات جوته وهي قصة «هرمن ودروتيه» وأنا أكتب هذا الفصل وفي نفسي عاطفتان قويتان تبعثان فيها السرور والغبطة وتملآنها بالرضى والابتهاج : احداهما عاطفة الأثرة التي يمتقتها الناس عادة ويذمها فلاسفة الأخلاق دائماً والتي لا تخرج من أن أقبلها الآن وأستعذب الشعور بها لحظات قصارا لأنني انسان أجدهما يحده الناس من هذه العواطف التي تنشأ عن الضعف فتملاً النفس غرورا وتبعث فيها الحاجة الى الفخر . ومالى لا أستعذب هذا الضعف ولا أستلذ الحاجة الى الفخر . وليس من الأشياء اليسيرة ولا القليلة الخطر ، أن يختصك الله بهذه النعمة .

نعمة التعريف بجوته وتقديمه وتقديم شيء من آثاره الخالدة الى
أجيال الشرق العربي على اختلافها .

لقد كنت ومازلت أشعر وأنا أقدم هذا الشاعر الفيلسوف
العظيم الى أهل الشرق انى أستقبله فى دارى وأقدم اليه من ألوان
التضييف والاكرام ما أقدر عليه وما هو أهل لأضعافه . وأى
شرف أحسن فى النفس وقعاً وأدعى الى الفخر والكبرياء من استقبال
هذا الرجل العظيم وتقديمه الى الشرقيين بل تقديم الشرقيين اليه
ولاسيما بعد أن مضت الأعوام بشخصيته الفردية والوطنية وجعلته
رجلاً انسانياً عالمياً فوق الفرد وفوق الأمة الألمانية التى أنجبتة
وفوق العصر الذى عاش فيه بل فوق العصور جميعاً . ويزيد هذه
العاطفة فى نفسى قوة وبها استثناراً انى لم أكذ أقدم جوته الى
الشرقيين حتى أحبوه وأقبلوا عليه يقرأونه ويدرسونه ويلتمسون
عنده غذاء العقل والعاطفة والشعور ؛ فلم تكذب تظهر آلام فتر
وتذيع فى الناس حتى أساغوها واستعذبوها وطلبوا المزيد من آثار
هذا الرجل العظيم . فظهرت لهم قصة فاوست فاذا هم يجدون فيها
مزاجاً قيماً بديعاً من الأدب الرائع والفن الرفيع والفلسفة العليا ،
واذا هم يقرأون ويدرسون ويستزيدون واذا صديقى عوض يلى
هذا الدعاء ويستجيب لهذا النداء فيتترجم لهم هذه الآية التى أقدمها
الى القراء اليوم وهى قصة «هرمن ودروتيه» .

هذه احدى العاطفتين اللتين أشعر بهما وأنا أكتب هذا
الفصل . فأما العاطفة الأخرى فقد تحدثت عنها وأنا أتحدث عن
العاطفة الأولى . ذلك انى أشعر بشيء من الاثار وحب الخير
للناس جميعاً وأشعر بشيء من الغبطة حين أراهم يظفرون بهذا الخير
الممتاز الذى يهديه اليهم الأدباء والعلماء من حين الى حين فيرفهون
عليهم ويريحونهم ساعات أو أياماً من هذا العناء الطويل الثقيل
الجاف الحشن : عناء الحياة .

ذلك انى لم أقرأ كتاباً يعجبني ولم أستمع بأثر من الآثار
الأدبية الرائعة إلا ازددت إعجاباً بهذا التشبيه الشائع الذى يصور
الحياة كأنها صحراء عريضة مقفرة ، محرقة الشمس غليظة الأرض ،
مضطربة الريح كشيرة الرمال ، تدفع فيها دفعاً لا قبل لنا بمقاومته
فلتقى فيها الأهوال والخطوب ولكن الأدب والفن والفلسفة تتيح
لنا من حين الى حين أن نستريح من هذا الجهد المضنى حين
نلتقى فى بعض الطريق وسط هذه الصحراء المهايكة واحة
نضرة ، فيها الشجر والزهر ، والروض والماء العذب ، والنسيم الحلو
العليل .

فهل يستطيع الناس أن يشكروا للشعراء والكتاب والفنيين
والفلاسفة ما يسدون اليهم من نعمة وما يقدمون اليهم من معروف
حين ينشئون لهم هذه الوحات التى يطمثون فيها ويحددون فيها

نشأطهم ويزوقون من نعميها وبهجتها ولنتها ما يعينهم على المضى فى
سفرهم الطويل الشاق؛ وهل يستطيع الشرقيون أن يشكروا لهؤلاء
الأدباء الذين يترجمون لهم آيات الأدب والفن والفلسفة فيتيحون
لهم من النعمة ما أتيح للأمم التى نبغ فيها عظماء الرجال وينسون
أنفسهم ويمحون شخصياتهم ويقتنعون بمكان المترجم ، الذى ليس
هو بالقارىء المستريح ولا المنتج النابغة ، ولكنه صلة بين الرجلين ؛
لاحظ له من راحة الأول ولاحظ له من مجد الثانى وانما هو خادم
مخلص مؤثر أمين يرفع القارىء الى حيث يذوق جمال الفن وجلاله ؛
ويشق لآثار النابهين من الأدباء والفلاسفة طرقا جديدة الى عقول الناس
وقلوبهم . ويتيح لهم بسط سلطانهم الخير على مختلف البيئات والأجيال .
هذه منزلة المترجم بين المستجيبين والمستهلكين فى الفن والأدب
والفلسفة كما يقول أصحاب الاقتصاد : يراها الناس يسيرة وأراها
عظيمة جليلة الخطر وحسبك انها هى التى تحقق الصلة القوية بين
الأجيال والشعوب فتزيل ما بينهم من الفروق ، وتدنى بعضهم من
بعض ، وتقربهم من هذا المثل الأعلى الذى يقوم على رقى العقل
والخلق والشعور وحب الخير والاخلاص فى طلب السلام .
فلنعرف لهم ذلك على أقل تقدير اذا لم نستطع أن نجزيهم بخير
منه على ما يسدون الى الافراد والجماعات من مآثرة وما يهدون
اليهم من جميل .

فرغ جوته في أواسط سنة ١٧٩٦ من قصته البديعة «ولهلم ميستر» وأرسل آخر جزء من أجزائها الى صديقه شيلر وأعلن اليه في كتاب أرسله مع هذا الجزء انه يريد أن يستريح من العناء الذي لقيه في وضع هذه القصة بوضع قصة أخرى غرامية ابطالها من أهل المدن . وكان كل شيء حول جوته يدفعه الى وضع هذه القصة والى وضعها على هذا النحو الذي سيراه القراء حين يقرأون هذه الترجمة التي أقدمها اليهم .

كانت الثورة الفرنسية قد غيرت نظام الطبقات التي تتألف منها الجماعة فازالت الفروق السياسية والاجتماعية وسوت بين الناس في الحقوق والواجبات ورفعت من شأن الطبقات الوسطى من أهل المدن لأن هذه الطبقات كانت راقية مهيأة للنهوض باعباء الحياة العامة واحتمال تبعاتها والاستمتاع بما فيها من منفعة وقوة وسلطان . ازلت الثورة الفرنسية سلطان الاشراف ولكنها لم تنقله الى الطبقات الدنيا لأن هذه الطبقات لم تكن مهيأة للنهوض بهفا كتفت بنقله الى الطبقات الوسطى ؛ وتركت للاشتراكية التمهيد لسيادة العمال ومن اليهم فكان الشعور في أوروبا كلها وفي فرنسا وجاراتها خاصة قويا لأن عصر السيادة والعزة للطبقات الوسطى قد أظل

الانسانية فلا غرابة في أن تنبعث الحياة القوية الخصبية في نفوس
هذه الطبقات وفي أن تضطر الفلاسفة والأدباء إلى العناية بها والتفكير
فيها ولا غرابة في أن يفكر جوته في أن يتخذ منها ابطلا لقصصه
وآثاره المختلفة .

وكان الشاعر الألماني فوس قد وضع قصة شعرية وصف فيها
الحب ونشأته بين المحبين وتدانى هذين المحبين حتى تكون الخطبة
ثم يكون الزواج وما يحيط بهذا كله من لذة وبهجة ومن ألم وحزن
ثم من رضى وابتهاج . وكان عنوان هذه القصة « لويز » وكان
الألمانيون قد فقتوا بها حين ظهرت سنة ١٧٨٤ . وكان جوت نفسه
من أشد الناس حباً لها واقتنائاً بها . وأنت تعلم أن من أخص
خصال الشاعر وأقواها وأشدّها تأثيراً في حياته الفنية أنه لا يكاد
يعجب بأثر من الآثار الأدبية حتى يود لو استطاع أن يحاكيه
وينشئ مثله . وكان جوت كما تعرف مشغولاً بالأدب اليوناني
وبالقصص والتماثيل منه خاصة ، وكان شديد الحرص على أن
يحاكي هذا الأدب ويحتذيه وينشئ مثله . وكان لا يتهيب شعراء
التماثيل اليونانيين ولكنه كان يكبر هو ميروس ويخافه ولا يكاد
يحدث نفسه بالطمع في محاكاته أو مجاراته ، ولكن عالماً ألمانياً هو
وولف كان قد نهض في هذا العصر إلى هذا المعبد الذي كان يقيم
فيه صنم هو ميروس ففتحه ودخله وزار حجراته وغرفاته ثم خرج

فأعلن إلى الناس أنه لم يجد صنفاً واحداً وإنما وجد أصناماً ، وأن
هوميروس ليس كما كان الناس يعتقدون ، هذا الشاعر الالهى العظيم
الذى لا يجارى ولا يبارى ، وإنما هو فى أكبر الظن شاعر نابغة
قد جراه من غير شك كثير من الشعراء فبرعوا كما برع ونبغوا
كما نبغ ونسبت آثارهم الخالدة اليه دونهم ، فزعم الناس أنه وحده
صاحب « الاليادة » و « الاودسيا » ، على حين أن نصيبه من هاتين
الآيتين يسير .

فلم يكده جوته يقرأ ما كتبه وولف حتى أحس الشجاعة على
أن يجارى شعراء « الاليادة » و « الاودسيا » كما جارى شعراء
التمثيل ، وكتب الى وولف يذكر له ميله الى أن يكون أحد
هؤلاء الشعراء الهوميريين .

وكانت الأنباء قد استفاضت بفشة دينية فى مدينة سلزبورج
انتهت بطرد البروتستنتيين منها ، فهاجر هؤلاء فى حالة سيئة ،
ومروا فى هجرتهم هذه باحدى المدن فخرج الناس ينظرون
اليهم ، وكان بين هؤلاء الناس شاب رأى بين المهاجرين فتاة راقته
فأحبها ولكنه لم يعلن اليها الحب ، وإنما طلب اليها أن تتبعه على
أن تكون خادماً لأسرته فقبلت . فلما انتهت معه الى البيت أعلنت
الخطبة وقبلتها الفتاة ، وقدمت الى الفتى شيئاً من النقد كانت تحمله
أهدته اليه مهرأ لها .

فلما انتهت هذه القصة الى جوته في هذه الظروف التي كانت تحيط به والتي أجمعتها لك آنفاً كان كل شيء قد تم ، ليستطيع شاعرنا العظيم أن يضع هذه القصة الشعرية التي يستريح بها من العناء الذي لقيه في تأليف قصة « وللم ميستر » .

ليس ما يمنعه من محاكاة هوميروس فقد حاكاه الشعراء من قبله وليس ما يمنعه من أن يجارى « فوس » ويضع قصة كقصّة « لويز » ، وليس ما يمنعه من أن يلائم بين هذين الميلين فيحاكى في قصة واحدة الشاعر اليونانى القديم والشاعر الألمانى الحديث .

أما محاكاة الشاعر الألمانى فيسيرة سهلة لامشقة فيها ولا عناء وليس من شك في أن الفوز فيها محقق لعبقرية جوته . ولكن الخطر كل الخطر والعسر كل العسر في محاكاة هوميروس وللشعر الحماسى كما نجده في الإلياذة والوديسيا شروط وأصول منها ما يتصل بموضوعه ومنها ما يتصل بشكله وصورته ، وليس من اليسير على جوته أن يرعى هذه الأصول ويحقق هذه الشروط ولئن فعل فلن يكون من اليسير أن يذوقه الناس ويعجبوا به . فالشعر الحماسى لم يقبل إلى أيام جوته أن يكون له موضوع غير الحوادث الخارقة العالية التي تتصل بالأبطال والآلهة وكل محاولة للنزول بهذا الشعر عن هذه المنزلة قد لقيت الاخفاق . والشعر الحماسى في حاجة إلى وزن خاص هو هنا الوزن السداسى الذى لم يألفه الألمان ولم

تستقيم له اللغة الألمانية . والشعر الحماسي يحتاج في ألفاظه وأساليبه
إلى شيء عظيم من الفخامة والضحامة والجلال الذي يبهز العقل
والخيال ويملاء السمع والقلب معاً . فكيف السبيل إلى تحقيق هذا
كله وكيف السبيل بعد تحقيقه إلى حمل الناس على قبوله وإساعته .
هذه هي المعضلة التي فرضت نفسها على جوته حين فكر في
إنشاء قصته الغرامية . ولكن جوته ليس رجلاً مثلك ومثلي وإنما
هو رجل نابغة فذ ، تستطيع المعضلات أن تفرض نفسها عليه
ويستطيع هو أن يجد لها الحل وأن يفرضه عليها . وكذلك فعل
ويحدثنا شيلر في بعض كتبه إلى صديق له أنه هو وامرأته لم يكونا
يدرمان بأى الأمرين يعجبان من جوته حين يضع هذه القصة
فيطلعهما على خمسين ومئة بيت في اليوم أيعجبان بهذا الشعر أم
يعجبان بسهولة تأتية للشاعر وسرعة الشاعر في إنشائه . ويقارن شيلر
في شيء من الإعجاب والحزن بين نفسه وبين جوته فينما هو يجهد
نفسه ويكلفها ألوان العناء ليخرج للناس أدباً لا يكاد يرضاه إذا جوته
يهز شجرة نبوغه فيساقط عليه منها الذئثار طعماً وأكبرها حجماً .
وقد كان شيلر موفقاً في هذه المقارنة موفقاً في إعجابه ببراعة
جوته وخصب قريحته فقد انتقاد له الشعر ووضع هذه القصة في
أقصر وقت وتكلف فيها أقل عناء وجاءت على هذه السرعة والسهولة
من أحسن الآيات التي أخرجها للناس .

يحتاج الشعر الحماسي الى موضوع له خطر وجلال وقد وفق جوته الى هذا الموضوع وهو الثورة الفرنسية . وأين تقع حرب طروادة من الثورة الفرنسية ! ولكن جوته لم يتخذ الثورة أصلاً للقصة وإنما اتخذها إطاراً لها ورأى أن هذا يكفي لارضاء إلهة الشعر القصصى . فاما أبطال هذه القصة . فقد اختارهم جوته بين هذه الطبقة الوسطى التى ظهرت بالسيادة الفعلية فى فرنسا والتى تطمح الى السيادة فى ألمانيا . وقد أحس جوته من إلهة الشعر القصصى نفوراً من هؤلاء الأبطال العاديين ان صح هذا التعبير ولكنه استطاع أن يزيل هذا النفور وأن يطلق لسان الشعر القصصى بمآثر هؤلاء الأبطال .

هل أنا فى حاجة الى أن أخص لك هذه القصة التى هى بين يديك؟ لا بد من ذلك فى أسطر قليلة لترى موضع البراعة فى قصة جوته : قوم من الألمان المجاورين لفرنسا قد رأوا الثورة ففتنوا بها وخلبتهم مبادئها العالية ولكنهم لم يلبثوا ان رأوا ما أثارت من الحروب واذا هى تطردهم من بلادهم واذا هم يعبرون الرين مشردين . وهم فى طريقهم يمرون بمدينة ألمانية صغيرة فتبتدى القصة فى هذا المكان . تبتدى فيه وتنتهى فيه فى أقل من يوم . ذلك ان أهل المدينة قد هرعوا الى الطريق العامة ليروا هؤلاء المشردين وليحملوا اليهم ما يستطيعون تقديمه من المؤونة . وكان بين أهل المدينة فتى هو

هرمن أبوه صاحب فندق وقد خرج يحمل الى هؤلاء المشردين
ما جمعت له أمه من طعام وشراب وكسوة فرأى بين هؤلاء الناس
فتاة بارعة الجمال رزينة رصينة لم يكدرها ويتحدث اليها حتى
شغفت قلبه فعاد الى أسرته وقد جن بها جنوناً.

وكان أبوه وأمه شديدي الرغبة في تزويجه ، وفي تزويجه من فتاة
غنية لها ثروة ضخمة ومكان رفيع في المدينة . وكان أبوه شديد
الحرص على هذا الزواج لأن فيه الثروة والرفعة معاً ولكن الفتى
لم يظهر ميلا الى هذا الزواج بل أظهر منه نفوراً وعنه أزراراً
فسخط أبوه واشتد سخطه وانصرف الفتى محزوناً كثيراً ثم تتبعه
أمه باحثة عنه حتى تظفر به في ظل شجرة فاذا هو يأس قد اعتزم
أن يقى ما بقى من أيامه في الحرب دفاعاً عن مدينته ان تعرضت للخطر .
وما تزال أمه به حتى تعلم علمه واذا هو مشغوف بهذه المهاجرة
يريد أن يتخذها له زوجاً وما أسرع ما تطيب أمه نفسها بهذه الفكرة
وما أشد ما تجتهد باقناع الوالد بها ولكن الوالد مغضب سئ الظن
لا يطمئن الى هذا الرأي الا كارها وعلى ان يذهب صديقان
أحدهما صيدلى والآخر قسيس ليعلمها علم الفتاة . فيذهبان ويرافقهما
الفتى وقد رأيا الفتاة فأعجبتهما ورضياها للفتى زوجاً وعادا بهذا النبأ
الى الاسرة وتحلف الشاب ليعلم حبه الى الفتاة . ولكنه لم يجرؤ على
ذلك لأن الفتاة قد ملأت نفسه هية وروعة ولأنه رأى في أصبعها

خاتم الخطبة ولكنه مع ذلك يعرض عليها الخدمة في بيته فتقبل ولعلها
أحسّت حب الفتى ولعلها طمعت فيما هو خير من الخدمة ويعودان
مشيا الى البيت وقد انقضى النهار وأقبل المساء ثم تبعته العاصفة .
ولا يكاد الفتى يدخل مع صاحبه على أبيه وأمه وصديقه حتى يزداد
الأمر تعقيداً . الفتى لم ينبيء صاحبه بحبه وانما عرض عليها الخدمة
وأبوه لا يعلم إلا ان هذه الفتاة ستكون زوجاً لابنه فهو يسألها أأعجبك
الفتى ! فيسوء ظن الفتاة بهذا السؤال ويكون حوار مؤلم تعزم معه الفتاة
على أن تعود أدر اجها ولكن كل شيء ينجلي ويعلن الحب وتكون الخطبة .
هذا تلخيص أقل ما يوصف به انه سخي لا يدل على شيء مما
في القصة من جمال وبراعة ولكني قد قدمت هذا السخف لتستكشف
أنت كيف يستطيع شاعر نابغة كجوته ان يخرج من قصة يسيرة
كهنه آية فنية كهذا الكتاب الذي أضعه بين يديك . ستجد هذه البراعة
في تصوير أشخاص القصة بما لهم من حياة وشعور وذكاء وخلق . مما
تجد عند الامان ومن صفات أخرى تجدها في الناس جميعا . بما تجرى به
ألسنتهم من حديث ساذج ولكنه خصب كأخصب ما يكون الحديث .
فيه تصوير لحياة الطبقات الوسطى في المدن وفيه تجلية لهذه الحكمة
الرائعة التي تسيطر على حياة الناس مهما تختلف الأجيال والأزمان .
نعم وستجد هذه البراعة في هذا التصوير الخفيف الأخاذ للطبيعة
الحية في المدينة ومن حولها في غير تكلف ولا بحث ظاهر ولا استقصاء

لأن لفاظ الخلابه . نعم وستجد هذه البراعة بنوع خاص ان كنت قد قرأت الالياذة والأودسيا حين تحس التشابه بين هذين النوعين من الشعر في الوزن أو لافليس هذا بالشيء الذى يعنيننا وفي الأسلوب والسذاجة بعد ذلك ، وهو الشيء الذى يجب أن نقف عنده ونلتفت اليه .

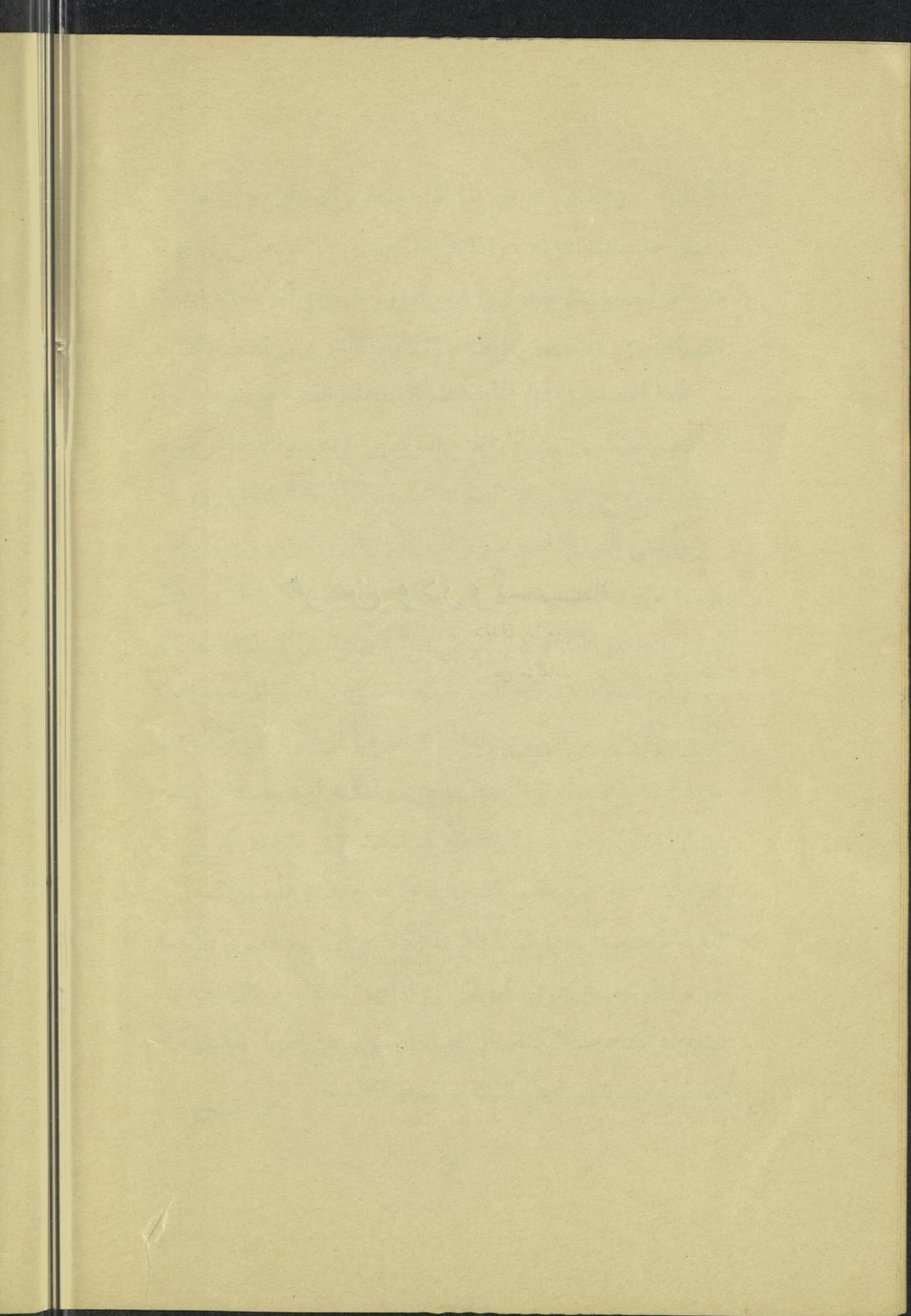
أبطال جوته كأبطال هوميروس فيهم سذاجة حلوة وفيهم دعة كلها عدوية وفيهم على ذلك شدة فيما لا بد من الشدة فيه . يتحدث بعضهم الى بعض فيمزجون أغراض الحياة اليومية بهذه الحكمة الشعبية الخالدة : ويصورون لك أنفسهم في هذا الحديث . وهم اذا تحدثوا أحياوا من حولك كل شيء وأجروا الحركة في كل شيء . وأشركوك معهم ومع الأشياء في هذه الحركة وفي هذه الحياة . وهم لا يحبون ما نألفه نحن من الإيجاز في الحديث والأعراض عما لا حاجة اليه ولكنهم يلهون بكل شيء ويفصلون كل شيء ويكشفون لك عن أشياء قيمة في هذا التفصيل الذى كنت ترى أن لا حاجة اليه . وفق جوته من غير شك كل التوفيق ، لأقول في محاكاة هوميروس وأصحابه ، بل أقول في الملاءمة بين فن هوميروس وأصحابه ، وبين الحياة الحديثة آخر القرن الثامن عشر .

أما في ألمانيا فقد فاز جوته بأعجاب عظيم حين أذاع هذه القصة . فتن بها الشعب ، ورضى عنها أكثر النقاد ، وتكر لها بعض الحاسدين . ولكنها لم تبلغ ثلاث سنين حتى تجاوزت ألمانيا واللغة

الألمانية ، وإذا هي تترجم الى الفرنسية والانجليزية والاطالية .
وتمضى بعد ذلك أعوام ، وإذا هي تترجم الى اللاتينية . ويرى جوته
هذه التراجم وينظر فيها ويرى هذا الفوز ويقول فى آخر حياته أن هذه
القصة قد بعثت فى نفسه من الرضى ما لم تبعثه قصة أخرى من قصصه المختلفة .
فاذا انتصف القرن التاسع عشر كانت هذه القصة موضوع رسالة
للكتوراه فى السوربون فاذا تقدم هذا القرن كانت هذه القصة موضوع
البحث الواسع العميق فى البيئات العلمية والأدبية المختلفة فى أوروبا .
وينتهى القرن التاسع عشر ويتقدم القرن الذى نحن فيه ويحتفل العالم
بمرور مائة عام على وفاة جوته ونفكر نحن فى هذا الاحتفال ثم يحال
بيننا وبينه فتفق أنا وصديقى عوض على أن تحتفل بهذا العيد كما نستطيع .
وأى أسلوب فى الاحتفال بجوته أحسن من أن يترجم عوض هذه
الآية من آياته ومن أن أنوب عنه أنا فى تقديمها الى القراء . وقد اشترط
على ألا أذكره بخير وأنا عند شرطه . ولكنه لن يستطيع أن يمنعنى
من أن أعلن راضياً مبتهجاً أنه قد استطاع فى ترجمته العربية أن
ينقل إلينا نقلاً صحيحاً ما قصد إليه جوته فى قصته هذه من السداجة
العذبة الخصبه معاً . وإذا فلغتنا العربية قادرة على أن تسع الفنون الأدبية
لجوته اذا وجد مترجمون كعوض . وإذا فقد أستطيع بعد أن نبت عن
عوض فى تقديم هذا الكتاب الى القراء أن أنوب عن القراء فأهدى الى
صديقى وصديقهم أجمل التهنية وأصدق الشكر

طه حسين

هرمن و دروتیه



(١) قصيدة (إيليجيا)

....

إذن لقد كان جُرماً أنْ أثارُ پروپرتيوس (٢)
في نفسى حماساً ؛ وأن قد اتخذت مارسِيال —

(١) لهذه القصيدة تاريخ لا بد من ذكره : ذلك أن جوته وشيلر كانا يكتبان قطعاً شعرية قصيرة اسمها إكسنيا Xenie ينتقدان بها معاصريهم ويسخران منهم . وقد رد هؤلاء النقد بمثله ، وطعنوا في كثير من مؤلفات جوته . وهذه القصيدة (وهى من نوع خاص اسمه « الإيليجيا » يرد جوته على الذين انتقدوه ولا موه على تشبهه بكتاب اليونان واللاتين . ولم تكن لهذه القصيدة أولاً علاقة بكتاب هرمن ودروتيه ، لولا أنه في آخرها يعلن للناس كتابه الجديد ، والمنحى الذى يريد أن ينحوه فيه : أن يقص قصة ألمانية عصرية على نمط قديم : على طراز شعر هوميروس . ولم تلحق هذه القصيدة بكتاب هرمن ودروتيه الا فى سنة ١٨٢١ أى بعد ظهور الكتاب بنحو ٢٥ سنة . والمتكلم فى هذه القصيدة هو بالطبع جوته نفسه .

(٢) پروپرتيوس Propertius أكبر شعراء اللاتين الذين نظموا القصائد التى من نوع إيليجيا . Elegia وليس معناها هنا مرثية . بل نوع من الشعر من وزن وشكل خاص . وقد اقتدى جوته بهذا الشاعر فى كتابة القصائد الرومانية . التى ألفها بعد عودته من روما — أما مارسِيال Martial فهو من أشهر شعراء اللاتين فى النوع المسمى ابيجرام Epigram أى حكمة أو مثل . وتفيد أحياناً معنى مقطوعة

ذلك الوقح الجرىء — رفيقاً وصديقاً ...
 أجل كان جرماً أن صاحبت القدماء
 ولم أنبذهم في مدرستهم ، ورأى ظهيرياً .
 وأن قد رافقوني — في الحياة —
 إلى لا تيوم راغبين طائعين (١) ...

أمن الجرم أنى جشمت النفس كل عناء
 في استطلاع ما بالطبيعة وما بالفنون من حسن وإبداع؟
 وأن لست ممن تخدعهم الأسماء أو تقيدهم الأوضاع؟
 وهل أجزمت إذ صممت لدوافع الحياة المُلحّة ،
 فلم تبدّل من طبعي ولا من شيمى ؛
 واذا همكت برقع الرياء الشائن باحتقار وازدراء ؟

فياربة الفن (٢) ! ان هذه الصفات

شعرية من غير نظر الى الموضوع . وقد اتخذ جوته مثالا في كتابه حكم البندقية
 Venetianische Epigramme . وقد هوجم جوته من أجل هاتين المنظومتين
 والى هذا يشير هنا .

(١) اشارة الى رحلته الى ايطاليا ، حيث كانت كتب القدماء مرشده الأول .

(٢) يخاطب إلهة الفن «Muse» على طريقة الشعراء في الشعر الخامس .

هى غرسك الذى غرسه فى نفسى بجد ونشاط .
قد جعلها الغوغاء وصمات وهنات ،
لأنهم يحسبوننى كأحدهم .

بل إن الأختيار أنفسهم — على ما بهم من صفاء ووفاء —
يريدون منى أن أسلك غير ستنى .
لكننى ، أيتها الربة ! لن أأتمر إلا بأمرك .
فأنت وحدك التى مازلت تبعثين فى صدرى
قوة الشباب ، اذا ما أخلق جلبابه .

وقد عاهدتنى على هذا مدى الحياة . . .
فيا أيتها الربة ! لتشملى اليوم عنايتك المقدسة
أضعافاً مضاعفة . فقد أصبح الرأس
وما تزيينه الذوائب الجميلة كما عهدناه من قبل .
فما أحوجه اليوم إلى إكليل
يخدع به الناس ويخدع به نفسه !
وقديماً كان قيصر (١) نفسه
يلبس الاكليل مكرها لامتتاراً .

(١) قيصر : هو يوليوس قيصر ، وقد سمح له بلبس الاكليل دائماً ليخفى به صلعه .

فإن كان لى عندك ، أيتها الربة !
 غُصْنٌ من الغار ، فذريه اليوم على شجرتة .
 يزدد خُضْرَةً ونَضْرَةً ،
 عسى أن يحين يومٌ فأصير به جديرا .
 عمّا قليل يأتى المشيب ،
 فينثر زنبقه الفضى خلال الذوائب السوداء .
 فلا تبخلى على الآن باكليل من الورد الجنى ،
 يتوج سعادتى المنزلية (١) .
 وإنى لسعيد إذ أرى الزوجة تشعل النار
 فى موقد نظيف ، من أجل طهى الطعام .
 واذا أرى الصبي يلقي بالأغصان فيها ،
 وهو يلهو ويلعب ...



(١) هنا يتكلم جوته بصراحة عن سعادته العائلية . وكان هذا عقب اتصاله
 بكريستيانا فولبيوس وقد ولدت له ابنه أغسطس وهو المذكور بعد . ويدعوها جوته
 فى البيت التالى زوجه . ومن الكتاب من يرى أن كتاب هرمن ودروتيه عبارة
 عن تشيد جليل فى وصف السعادة المنزلية والحياة الزوجية . وفى هذه السطور يقول
 جوته — متواضعاً — انه لم يبلغ فى الشعر بعد منزلة يستحق فيها إكليل الغار ،
 ولكنه بلغ فى سعادته المنزلية درجة عليا يستحق فيها إكليلا من الورد .

فاملئى ايتها الربة أقداحنا بالمدام !
 ويا أصدقائى الذين يعشقون السمّر ،
 والذين هم على شاكلتى ومذهبى !
 أهلاً بكم إن لكم عندى أيضاً أكاليل !
 فتعالوا نشرب أولاً نخب ذلك الرجل الجرى ،
 الذى خلصنا أخيراً من هوميروس (١) :
 خلصنا من ذلك الاسم العظيم الهائل ،
 لكى يسلك بنا طريقاً أجلاً وأعظم .
 ومن ذا الذى يجزؤ على التطلع لمرتبة الآلهة ؟
 بل إلى مرتبة إله واحد ؟
 بيد أنى ، رغم هذا ، أرى حسناً — وإن جئت أخيراً —
 أن أكون أحد أولئك الهومريين ..
 فيما أخلاى ! أنصتوا إلى هذا القريض الجديد :

(١) يشير إلى الكاتب الألمانى ولف Wolf وهو من معاصرى جوته وكان
 بينهما معرفة ومودة . وهو أول من قال بأن القصائد المنسوبة الى هوميروس (الليادة
 والاوذيسية) ليست من تأليف رجل واحد ، بل من وضع كثيرين أطلق عليهم اسم
 الهومريين (Homeriden) . وهم الذين يشير اليهم جوته هنا باسم الهة ، ويود
 لو أنصح له أن يقلدهم .

وَأَتَرِعُوا الْأَقْدَاحَ بِالرَّاحِ :
لَعَلَّ فِي الصَّهْبَاءِ وَالْحَبِّ وَالصَّدَاقَةِ
مَا يَحْمِلُكُمْ عَلَى التَّسَامُحِ وَالْإِغْضَاءِ ..
إِنِّي سَأَسُوقُ أَمَامَكُمْ صُوراً لِحَيَاةِ الْأَلْمَانِ أَنْفُسِهِمْ
فِي دَارِ تَجْمَعٍ بَيْنَ الْبَسَاطَةِ وَالْهُدُوءِ .

حَيْثُ الْإِنْسَانُ يَتَعَلَّمُ مِنَ الطَّبِيعَةِ
كَيْفَ يَغْدُو إِنْسَاناً كَامِلاً
وَلَيْسَ كُنْ رَفِيقَنَا الْيَوْمَ رُوحُ ذَلِكَ الشَّاعِرِ ،
الَّذِي سَجَرْنَا بِيَانَهُ ، إِذْ يَقْصُّ عَلَيْنَا قِصَّةَ (لُوزِيَا)
وَكَيْفَ عَقَدَ لَهَا بِسْرَعَةٍ عَلَى الْفَتَى الْجَدِيرِ بِهَا (١)
وَكَذَلِكَ سَأَسُوقُ أَمَامَكُمْ أَعْيُنَكُمْ
صُوراً أَلِيمَةً لَذَلِكُمُ الْعَهْدِ الْحَزِينِ (٢) .
وَأُرِيكُمْ كَيْفَ يَخْرُجُ الْجَنْسُ الْبَاسِلُ الطَّاهِرُ
وَقَدْ عَقَدَ لَهُ أَخيراً لُوءَ النُّصْرِ ..
وَلَنْ وَفَّقْتَ لِاسْتِدْرَارِ الدَّمْعِ مِنْ مَآقِيكُمْ :

(١) قصة لوزيا للشاعر الألماني Voss تشبه الى حد ما قصة هرمن ودروتيه .
ومنها اقتبس جوته موضوع هذا الكتاب .
(٢) أى عهد الثورة الفرنسية .

ولئن أخذتكم نشوة الطرب لما أنشدته الآن
فتعالوا عانقوني عناق المودة الخالصة .
وأسندوا صدري إلى صدوركم .
إن حديثنا اليوم حديثٌ عقل وحكمة :
فلقد ألقى علينا هذا القرن (١) في نهايته
دروس الحكمة الغالية ،

بما أجهدنا به القضاء ، وابتلانا به القدر .
إن في قلبكم من السرور والطرب
ما يعلمكم القناعة والرضى بالقليل .
فلتنظر ، إذن ، الى تلکم الأيام الماضية :
نظرة طمأنينة وارتياح .

ولئن عينا كثيراً بمعرفة الرجال والشعوب
فلتعلم ، أيضاً ، ما انطوت عليه الجوانح .
وما استقرّ في أعماق النفوس .
يكنُّ لنا في هذا من السرور أوفى نصيب .

(١) أى القرن الثامن عشر . وفي نهايته كتب هذا الكتاب . والدروس المشار
إليها هي الثورة الفرنسية في كل أطوارها .

النشيد الاول

KALLIOPE كاليويا^(١)

(الهة الشعر الحماسي)

....

صروف القضاء وعطف القلوب

« لعمري ما رأيت هذا الميدان ولا هذه الطرق خلاء قفرا
كما أراها اليوم . وكأني بها قد كُنِست كنسا ، أو بسط عليها
الموت جناحيه . فلا أكاد أبصر من أهل المدينة جميعاً
خمسين رجلا .

(١) الكتاب مكون من تسعة أناشيد ، وكل نشيد عنوانه اسم من أسماء آلهات
الفنون Muse كما فعل هرودوت : كأنما المتكلم في كل نشيد هو الموسا نفسها .
والهة النشيد الاول هي إلهة الشعر الحماسي : أو شعر الملاحم Epos . لان الكتاب
هو من هذا الطراز . ولكل نشيد عنوان ثان يدل على موضوعه وهو هنا صروف
القضاء وعطف القلوب . لان القضاء نزل بكثير من الهاريين اللاجئين في عهد
الثورة الفرنسية . فهاجروا الى نهر الرين فعطففت عليهم قلوب الناس كما سنرى في النشيد .

« إن حب الاستطلاع لذو سلطان على النفوس ! فلقد
هَرَّعَ الناس وتدافعوا من كل صَوْب ، مسارعين الى رؤية
ذلك القطار الحزين من اللاجئين التعساء .

« إن بيننا وبين ذلك الجسر الذى سيسلكونه سير ساعة
من الزمان ، ولا بد بعد ذلك من الانحدار والمشى وسط الغبار
وفى حرّ الظهيرة ... ولن ترانى مُخَلِّياً مكانى ، من أجل
رؤية ذلك الشقاء ، الذى تزرح تحت عبئه تلك الجماعات
المهاربة؛ وليس بيدها سوى القليل مما استطاعت إنقاذه حين
أكرهت على ترك أوطانها الجميلة وراء الرين والالتجاء الى
ديارنا (١) ، حيث يطوفون بأرجاء هذا الوادى الخصب ،
وبين منعطفات نهرنا الفياض .

« ولعمري لقد أحسنت صنعاً أيتها الزوجة ، إذ هزّتك
الأريحية ، فبعثت ابننا لكى يحمل الى هؤلاء البائسين بعض

(١) هذه الجماهير جاءت من الناحية الغربية لنهر الرين : أى من البلاد الألمانية
المتاخمة لحدود فرنسا مثل الألزاس .. وهؤلاء الألمان حين أرادوا الفرار مما سببه
لهم الاحتلال الفرنسى من الشقاء اضطروا لان يحتازوا نهر الرين الى الناحية الشرقية
(الناحية اليمنى) حيث المدينة الصغيرة التى تدور فيها حوادث هذا الكتاب .

الملابس القديمة وشيئاً من الطعام والشراب . فان العطاء
فرض على ذوى اليسار .

« وإنى لشديد الإعجاب بفتاننا إذ أراه يسوق المركبة
بمهارة فائقة ، وقد أخضع الجياد ، يسيرها كيفما شاء .
وتعجبني مركبتنا الجديدة ، فهي حقيقةً على شئ كثير من
الحسن . ومن السهل أن يجلس بها أربعة أشخاص دون مشقة
أو عناء ، عدا السائق الذى يجلس على مقعده الخاص .
وهو اليوم يسوقها منفرداً لم يصاحبه أحد . . أرايت
كيف دار بها حول ناصية الطريق بسهولة تامة ؟ »

هكذا كان صاحب فندق « الأسد الذهبى » يتحدث
الى زوجه وهو جالس فى مدخل داره مستريحاً مطمئناً .
فقالت زوجه ، وقد أوتيت شيئاً كثيراً من العقل
والذكاء : « إنى أيها الوالد (١) لست بالتى تهبُ ما عندها
من قديم الثياب والأقشة عن طيب خاطر ؛ فانها أشياء تقي

(١) عبارة مألوقة عند الاوربيين فى خطاب المرأة لزوجها متى أصبح والداً .
وكذلك الاب ينادى زوجه يا أم !

بشئى الأغراض والحاجات . وليس من السهل شراؤها بالمال
حين نعدو فى حاجة إليها . لكننى اليوم لم أتردد فى بذل
مقتنيات حسنة من الألبسة والأغطية . فلقد سمعت أن
فيهم أطفالاً صغاراً وشيوخاً فاني يمشون عراة أو شبه عراة .
« فهل أنت صافحٌ عني إذ لم أحجم عن الاغارة حتى على خزانة
ثيابك أنت . وما أخذته منها جبة نومك (١) ذات الإزهار البديعة
المطرزة بالحرير الهندى على قماش من القطن الثمين ، ومبطنه
بأحسن الصوف وأغلاه . ولم أتردد فى بذلها لهؤلاء البائسين .
لأنها كما تعلم قد غدت قديمة مهلهلة ومن طراز عتيق . »

فتبسم صاحب الفندق ، وقال : « إني ليسوءنى فقد هذه
الجبة القطنية القديمة . فانها بضاعة شرقية أصيلة ، ولا يتسنى
وجود مثلها اليوم . على أنى الآن لم أعد أرتديها . فقد أصبحنا
فى زمان يُراد منا فيه أن نلبس دائماً العباءة والكساء البولونى
وأن نحتذى النعال الطويلة دون القصيرة . وحرّم علينا حتى
لبس القلائس الخفيفة . »

فقال زوجته : « ها قد عاد أدراجه بعض أولئك الذين

(٢) ترجمة لكلمة Schlafrock وهى المعروفة بالروب دى شامبر .

ذهبوا الرؤية الوافدين . فلعل المشهد قد انتهى . أنظر إلى أحذيتهم ، كيف تراكم عليها التراب . وإلى وجوههم كيف تلتهب لما عانوه في هذا الحر الشديد . وهاهم أولاء يتناول كل منهم منديله . ليسمح به عرقه المتصبب ، ولو أنى مكانهم لمنا أنهكت قواى ، بعد ذلك المشهد ، بكل هذا العدو والاسراع . ولعمري إنهم سيذهبوننا اليوم قصصا وأحاديث . »

فسكت الوالد ملياً . ثم قال فى شيء من التأنى والتأكيد : « إنا بعيدو العهد بمثل هذا الهواء الصحو الجميل فى زمن الحصاد . وغدا لا بد لنا أن نشرع فى جنى الثمار ، كما حصدنا البرسيم من قبل دون أن تفسده الأمطار . . ما أشد صفاء السماء ! ، إن العين لا ترى سحابة واحدة تشوبه . وتهب علينا من الشرق صبا علية باردة تنعش الروح .

أن هذا الهواء من الطراز الثابت الذى لا يتغير بسرعة (١) . وهاك القمح قد نضجت سنابله وأمعنت فى النضوج . فغداً نبدأ حصاد هذه الغلة الوافية الوافرة » .

فى أثناء كلامه هذا كانت جماهير الرجال والنساء تتزايد .

(١) ان صاحب الفندق كثير التفاؤل لان الطقس يتغير فعلا قبل انتهاء اليوم .

وكلهم يحترق الميدان قاصدا إلى داره . وكان يُرى في جملة
العائدين جارهم التاجر الغني . أكبر تجار البلدة وأعظمهم
شأنا . وقد دخل الميدان من الناحية الأخرى ومعه بناته
في مركبة مفتوحة من الطراز الذي يصنع في مدينة لاندو .
وهكذا عادت إلى الطرقات الحياة واشتدت بها الحركة .
لأن المدينة ، على صغرها ، كثيرة الأهل والسكان . وبها كثير
من الصناعات والحرف الناجحة .

كان الزوج والزوجة جالسين في مدخل الفندق ، ينظران
إلى هذه الجموع ، يموج بعضها في بعض ، ويتسللان بما يشاهدان
أمامهما ، ويتبادلان العبارات والاشارات . إلى أن قالت الزوجة
الكريمة : « أنظر ! ها هو ذا القس قد عاد وهو مُيمَّمٌ شطرنّا .
وهذا جارنا الصيدلى قد رجع أيضا . وسيقصان علينا من غير
شك كل ما رأياه هناك ، ممّا لا تُسر لمراه العيون . »

وحقا وصل الصديقان إلى الفندق ، وحيّا الزوجين أحسن
التحية . ثم جلسا على دكتين من الخشب في الدّهليز . وبعد
أن نفضا الغبار عن أقدامهما ، وترَوّح كل منهما بمنديله ،
وتبادل الجميع عبارات التحية والسلام ، أخذ الصيدلى يتكلم

في شيء من الغيظ والكمد فقال : « إني لأعجب كل العجب
لهؤلاء الناس — وهم في هذا جميعا سواء — إذ يحلو لهم أن
يقفوا ويَحْمَلُوا لما يصيب جارهم من مكروه، ولما ينزل به
من خطب . قترهم يسارعون ويتدافعون، لكي ينظروا النيران
يندلع لهيبها وتحتاج ما حولها . . ويبادرون إلى رؤية المجرم
المسكين حين يساق إلى الموت . واليوم نراهم جميعا قد
انطلقوا لمشاهدوا ما حل بأولئك الطريدين من شقاء
وما يعانون من آلام . وقلبا يفكر أحدهم أن قد يحل به ما ألم
بأولئك النساء، إن عاجلا أو آجلا . اللهم إني أجد في هذا
خِفة لا تغتفر، وإن كانت مغروسة في طباع البشر . »

فتكلم القسيس وكان رجلا ذكي العقل، كريم النفس،
زينة أهل المدينة جميعا؛ وهو بعد أدنى إلى الشباب وإن
كملت رجولته . وكان أدري من صاحبه بالحياة، وأعرف
بما يريد السامعان من الأنباء . ناهيك أنه رجل قد طالع
الكتب المقدسة وتعمق في درسها؛ وامتلاء صدره بما حوته
من الآيات الغالية، التي تكشف عما تكنه الصدور من الأسرار،
وما تضره المقادير لبني الانسان . وكذلك كان ملها بأحسن

ما في الكتب الدنيوية .

وتكلم القسيس فقال : « لست أود أن ألوم بني الانسان
من أجل أعمال ضررها يسير ، تملئها الغريزة ، ويدفعهم إليها
الطبع . فان غرائز الناس ، التي تقودهم على رغبتهم ، وتتحكم
في أهوائهم فتسيرهم كما تشاء ، تلك الغرائز كثيرا ما تصيب
النجاح والتوفيق حيث يفشل العقل والتدبير ، وتقصّر الحكمة
والذكاء . . قل لي بربك إذا كان شغف الانسان بالاستطلاع
لا يجذبه بتلك القوة الساحرة ، فأني له أن يدرك ما بالكون
من حسن النظام وجمال التنسيق ؟ فالانسان في مبتدأ أمره
شغفٌ بالبحث عن كل جديد . بعد هذا يسعى وراء النافع
المفيد ، وأخيرا تلقاه يطلب الخير وينشد الصالح من الأمور .
لكي يرتفع بهذا شأنه ويعلو به ذكره . فهو في شبابه ترافقه
الخفة والرعونة وتلازمانه أينما سار . وتخفيان عن عينه
الأخطار التي قد تعترض طريقه . وإذا حلت به كارثة أو نزلت به
ملمة فسرعان ما تمحوان آثارها وتزيلان آلامها . ولنعم
الرجل الذي يستطيع أن يولد من رعونة الشباب هذه عقلا
رصينا يجد ويدأب في السراء والضراء على حسد سواء . فيفعل

الخير ويُعلَى من شأنه ، ويصلح الفاسد ويزيل الشرور .
وكانت السيدة الفاضلة قد عيل صبرها فقالت تخاطب
الرجلين : « لكن ألا تحدثنا بما رأيتم اليوم ؟ فيودى لو أحطت
بهذا علما . »

فتكلم الصيدلى جارهم فى جدٍّ وهدوءٍ ، فقال : « هيهات أن
يعود الى قلبى السرور بكل هذه السرعة بعد الذى شاهدته
اليوم . ومن ذا الذى يستطيع أن يصف لكم ذلك الشقاء ذا
الأشكال والألوان . . لقد لاح لنا من بعيد مثار النقع ،
ونحن لم نتحدر بعد الى السهوب . وكانت جموع الطيريين
قد أخذت تصعد ثم تنحدر من كشيّب الى كشيّب . فلم يكن
من المستطاع أن تبين الأعين من أمرهم شيئاً . ولما بلغنا
الطريق التى تعترض الوادى وتصل بين جانبيه ، رأينا الناس
ما بين راكب وراجل ، يتزاحمون ويتساقطون . وأبصرنا
أيضاً — وبالألأسف — بعض أولئك التعساء ، وقد أخذوا
يمرون بنا ، فاستطعنا أن نقرأ فى وجوههم ما يعانىهِ الطريد
الشريد من مرارة وألم ، وما يحسه ، رغم هذا ، من سرور
وفرح ، إذ تسنى له أن ينقذ حياته من بين مخالب المنون .

أجل لقد كان من المؤلم حقا رؤية تلك الأمتعة العديدة من كل نافع مفيد ، مما نراه عادة في كل منزل عني أصحابه بأعداده وتنسيقه . فيجعلون لكل متاع مكانه الخاص به ، تتناوله الأيدي بسهولة كلما دعت إليه حاجة ثم ترده الى مكانه . . .
والآن كنا نرى كل تلك الأمتعة . وقد اختلطت وامتزج بعضها ببعض ، بعد أن انتزعت من مواضعها انتزاعا . وحملت على عجل فوق مطايا وركائب من كل نوع ومن كل طراز . فكنت ترى الغربال وأغطية الصوف ملقاة فوق خزانة الثياب . والفراش الوثير وسط وعاء العجين ، وغطاء المائدة ملقى على المرأة . . . ولقد مارسوا من غير شك ذلك الفزع الذي قاسينا شره نحن منذ عشرين عاما في أثناء الحريق الهائل . إذ طاشت بنا الأحلام ، فأخذ الناس يجمعون الغث من الأشياء ويتركون الثمين من خلفهم ، وكذلك شاهدت اليوم أولئك المشردين وقد احتقبوا من تافه الأمتعة وحقيرها ، ما أضنوا به مطاياهم ودوابهم : فمن فرش بالية ، إلى براميل قديمة . الى بيت للطيور أو قفص للعصافير . كل هذا وأمثاله قد جمعه واحترموه بدقة وعناية ، لكن من غير عقل

ولا تدبر. ولكم رأينا اليوم من طفل صغير أو امرأة ضعيفة،

تلثت إعياء ونصبا، وهي تنوء بما تحمله أو تجره من جِوَالِقِ

أو سَفَطٍ أو باطية، كلهما مملوء مفعم بأمتعة ليس فيها نفع

ولا غناء.. فما أشد حرص الانسان حتى على الحقير التافه

نما ملكت يمينه!

وهكذا كانت جماهير الطريدين تسير في طريقها، وقد ثار

من فوقها الغبار، وهي تمشي على غير هدى، وتتدافع من غير

نظام: هذا تعبت دوابه ويريد أن يسير الهويني؛ وذلك

عجل يريد أن يسرع في خطاه. وهنا تسمع صياح نساء وأطفال

قد آدهن الزحام. وهناك تسمع خوار الدواب وعواء الكلاب؛

وهناك تسمع عويل الشيوخ والمرضى، وقد أجلس كل منهم

على ظهر مركبة قد حملت أقصى ما تستطيع أن تحمله، فهي

تهزه هزا عنيفا.

ويا ليت هذا كل ما يكابدون. فإن الزحام الشديد كثيرا

ما يميل بالعجلات عن الطريق ويدفع بها إلى حافة الجسر.

فتهوى المركبة الى الخندق، ثم تنقلب بما تحمله من متاع ومن

ناس، ولحسن الحظ قد سقط الناس بعيدا وسط الحقول،

وأما الصناديق الثقيلة فهوت الى جانب المركبة . ولقد خيل
الى من شاهد هؤلاء الناس عند سقوطهم أن سيراهم وقد حطمتهم
تلك الصناديق والخزائن . بل سحقتهم سحقاً . على كل حال
لقد تحطمت المركبة ؛ وبقي أصحابها حيارى ما لهم من معين .
فقد تركهم الآخرون وانطلقوا في سبيلهم ، يدفعهم التيار
دفعاً ، فلا يعينهم سوى أمر أنفسهم . وقد أسر عنا نحو هؤلاء
المرضى والشيوخ الهرمين الذين برح بهم السقام ، بحيث
لو كانوا في ديارهم وعلى فراشهم لكفاهم ما يعانون من ألم
ووصب . فكيف بهم الآن وكلهم طريق الثرى مضعضع
الجسم ، يئن ويتأوه . وقد أحرق حر الشمس محياه ، وخنقه
الغبار المتطاير .

فقال صاحب البيت ، وقد أثار الحديث في قلبه عاطفة
الرحمة : « ليت ولدى هرمن يلقيهم ، فينعشهم ويكسوهم .
أما أنا فما أحسبني أرغب في رؤيتهم ، لأن منظر الشقاء يؤلمني ،
ولقد تأثرتنا حينما سمعنا الأنباء الأولى عما يعانیه أولئك
البائسون ، فبادرنا مسرعين بارسال شيء مما فضل عن حاجتنا ،
مساعدة للقليل منهم ، وهكذا استراح ضميرنا نوعاً ما .

والآن فلنترك ذكر تلك المشاهد الأليمة ، فانها سرعان
ما تبعث الرعب في القلوب ، فتملؤها بهموم وأشجان هي شرٌّ
من الخطب الذي آثارها في النفس .

فهلّم بنا إلى الحجرة الخلفية الصغيرة ، ذات الهواء البارد
الليل ، فهي ليست معرضة لأشعة الشمس ، والهواء الحار
لا ينفذ إليها بفضل هذه الجدران السميكّة . وهناك فلتحضر
الأم العزيزة لكل منا كأساً من نبيذ العام الثالث والثمانين (١)
وبهذه الكأس فلتنفض عنا غبار الهموم . أما هذا الدهليز
حيث نحن الآن . فلا يصلح للشراب ، إذ سرعان ما يحدق
الذباب بأقداح الراح . »

فانطلقوا جميعاً الى تلك الحجرة فرحين بتلك الكأس
المنعشة . وهناك أحضرت لهم الأم النبيذ الأبيض الصافي
في قارورة مصقولة لامعة على صينية من الصفيح المجلوّ المضىء .
وقد صفت فوقها أقداح من الزجاج الأخضر : وهي أقداح

(١) أى الذى صنع من عنب سنة ١٧٨٣ . وكانت سنة اشتهرت بجودة عنبها
وجودة الجمر التى صنعت من ذلك العنب . ووادى الرين من أشهر أقاليم أوروبا
اتاجاً للخمر .

نبيذ الرين الحقيقية . وجلس الأصدقاء الثلاثة حول مائدة
مستديرة سمراء اللون ، قد أجيد صقلها ، ذات قوائم ضخمة
متينة .

ولم تكد الأقداح ثملاً حتى رفع صاحب الدار والقسيس
كأسيهما ، وتدافع الكأسان برفق . . بيد أن ثالثهم قبض على
كأسه مطرقاً مفكراً . ولم يرفعها عن المائدة . فأخذ صاحب
البيت يستحثه بعبارة رقيقة . وقال : « هلم أيها الجار العزيز
فاشرب معنا ! ألا ترى أن الله جل شأنه ، قد وقانا سوء برحمته
وكرمه إلى اليوم ، وإخاله سيرعانا في مستقبل أيامنا أيضاً .
ومن يستطيع أن ينكر أنه تعالى منذ ابتلانا بذلك الحريق
المفزع : فأنزل بنا ذلك العقاب الصارم ، لم يزل بعد ذلك يغمرنا
بالسعادة ويشملنا بالرعاية والعناية ، كما يعنى المرء ويحرص
على إنسان عينه وهو أعز الجوارح عليه . . بعد هذا كله
أيجرنا ، سبحانه ! هذه الحماية والمعونة ؟ على أن قوته تعالى
وسلطانه إنما يدوان للأعين حين تنزل الشدائد وتحرق
الأخطار . . أيمن . أنه وهو الذي أقام صرح هذه
المدينة الزاهرة ، وشيدها بأيدي بنيها المجدين ، بعد أن كانت

رماداً أو أنقاضاً، ثم أسبغ عليها فضله وبركته، يعود اليوم فينزل
بها الدمار والخراب؛ ويقضى على كل تلك الجهود؟»

فقال القسيس بصوت هادئ رقيق وقد سره ما سمعه:
«تمسك بأهداب الايمان. واعتصم، ما استطعت، بهذه
الآراء؛ فبمثلها تغدو في أوقات السعادة رزينا مطمئنا، وهي
في زمن الشقاء نعم السلوى والعزاء، ونعم الباعث للأمل
والرجاء!»

فأجاب رب البيت بعبارات تبدو فيها الرجولة والحكمة.
فقال: «لكم كنت أحيى نهر الرين وتياره المتدفق، كلما عدت
إليه بعد أسفاري ورحلاتي. ولكنى قلما خطر لى أن ضفافه
الجميلة ستصبح يوماً بمثابة السد المنيع، لندرأ به عنا الفرنسيين.
وأن سيغدو مجراه الفسيح خندقاً ليقينا ويدفع الشر عنا. فانظر
كيف تحفظنا الطبيعة. وكيف يحمينا الألمان البواسل، وكيف
يكفوننا الإله جل جلاله! فأى أحمق يحجد أو يكفر؟ إن
المحاربين قد سَمُوا القتال وأضتتهم الحروب، وكل شيء يدل
على اقتراب الصلح والسلم. ومتى احتفل الناس بالصلح، الذى
يشبهه الجميع منذ زمن، فانى أرجو أن نحتفل به نحن أيضاً

في كنيسةتنا، فيمتزج صوت النواقيس بأنغام الأرغن، وقرأة صلوات الابتهاج بصوت البوق .

وبودی یا سیدی القسیس لو أن ولدی هرمن یُعقد له فی ذلك الیوم علی العروس . فیتقدم بها بین یدیک الی المذبح . فیکون ذلك العید السعید، الذی تحتفل به البلاد جمیعاً، عیداً لسعادتنا المنزلیة فی مستقبل الأيام .

وإنی لیَحْزُنُنِی أن أرى هذا الشاب - علی جده ونشاطه فی أعماله - ساکننا رزیناً، کثیر الخجل والحیاء، زاهداً فی رؤیة الناس والتحدث إلیهم . راغباً حتی عن صحبة الغید ، وعن الرقص وهو قبله أنظار الشباب .

کان الوالد یتکلم علی هذا النحو، ثم أمسک عن الکلام فجأة . وأخذ یصغی : فاذا صوت سنابک الخیل یقترب ویزداد جلاء ووضوحاً . والضوضاء آخذة فی التزاید تدریجاً؛ ثم سُمِعَت عجلات مرکبة مسرعة تجری بصوت کأنه قصف الرعود . ووقفت فجأة لدى باب الدار .

....

النشيد الثانى

تربسيكورا^(١) TERPSICHORE

(الهة الرقص)

هرمن

دخل الابن الى الحجرة ، فاذا هو قى حسن الصورة طويل
القامة .. تلقاه القسيس بنظرات حادة نافذة ، متأملا قوامه
وناقدا حركاته بعين الباحث الخبير ، الذى تخترق فراسته
الحجب ، ويستنبط الأسرار من غير عناء . وقال له بلهجة
المخلص الأمين : « إنك لتعود إلينا إنسانا غير الذى عهدناه

(١) الموسا التى تشيد هذا النشيد هى إلهة فن الرقص . وفى الحق أن لا مناسبة
بينها وبين ما فى هذا الفصل . ولا يعرف لماذا اختارها جوت دون غيرها عند التكلم
عن هرمن وهو الذى ينفر من الرقص . على كل حال مادامت هنالك تسعة أناشيد
فى الكتاب وفى الخرافات تسع ربوات للفن . فلا بد أن تتولى كل واحدة الاشراف على
أحد هذه الاناشيد . ولا بد فى بعض الاحيان ألا يكون هنالك تطابق بين ماهو معروف
عن ربة الفن فى العرف وبين ماهو منسوب لها هنا .

وعرفناه . وما أحسبني رأيتك يوما ووجهك ممتلئ بشرا
وسرورا ، وفي ناظرِكَ هذا البريق الذي أبصره الساعة . .
إنك تقبل علينا فرحاً طروباً ، لأنك من غير شك قد قسمت
الهدايا بين أولئك البائسين ، فدعوا لك أطيب الدعوات .
فأجاب الفتى بألفاظ ، فيها جدٌّ وهدوء : « لست أدري
هل فعلت شيئاً أحمد عليه . غير أني في كل ما عملت ، لم أفعل
غير الذي أملاه على قلبي . وهأنذا أقص عليكم القصص كله :
« إنك يا أماء قضيت زمناً غير قصير في جمع الأشياء
ه في اختيارها . فلم تنهياً الحقيقة إلا بعد لآي . وكذلك التبيذ
والجعة ، قد استغرق إعدادهما زمناً غير قليل . وحين انطلقت
أخيراً من المنزل ، وسرت في الطريق لقيت كثيراً من الناس
راجعين أدراجهم بنسائهم وأطفالهم ، لأن جماهير اللاجئين
كانوا قد ابتعدوا . فلما أدركت هذا الأمر ، ثنيت أعنة الخيل ،
ووجهتها بسرعة تلقاء القرية ، وقد أبلغت أنهم سيبيتون بها
ليلاً . »

« وبينما أنا أعدو بالمركبة في الطريق الجديد ، إذ أدعشني
منظر مركبة ، ذات قضبان متينة ، يجرها ثوران من أشد الثيرة

قوة وأضحها جسما ، وإلى جانبهما فتاة تمشى بخطى ثابتة ،
وفى كفها عصا طويلة ، وهى تقود هاتين الدابتين ، على ما بهما
من بأس وقوة ، بحنكة وبمهارة : طورا تدفعهما للأمام ، وتارة
تردهما الى الوراء .

« وحينما أبصرتنى اقتربت من جوادى وقالت : «لم تكن
دائما حليفى الشقاء كما ترانا الآن فى طريقنا هذا . وما اعتدت
يوما أن أسأل الغريب عرفا أو ألتبس منه صدقة . والناس
قلما تهب عن رضى بل لكى تتخلص من لاجاة السائل .
أما اليوم فتدفعنى الحاجة الى الكلام : هنا قد اضطجعت على
الخطب عقيمة رجل من ذوى اليسار ، لم أستطع إلا بشق
النفس أن أنجو بها ، على هذه المركبة وبهذين الثورين وقد
جاءها المخاض . وبعد ذلك وضعت طفلها ، فلم نلحق بالآخرين
إلا بعد حين . باتت وليس بها من الحياة إلا الذمء ، وبين
ذراعيها طفلها الرضيع ، تحتضنه وهو عريان : وهيات أن
يستطيع أقاربنا أن يمدوا إلينا اليوم يد المساعدة ؛ ولئن كانوا
سبقونا الى تلك القرية ، حيث نبغى المبيت ليلتنا هذه ، فانى
أخشى أن يرتحلوا عنها قبل أن نصل إليها . فان كان لديك شئ »

من كتمانٍ ليست لك به حاجة وكنت من أهل هذا الحى
فلا تبخل به على البائسين .

« عند ما نطقت بهذه الكلمات ، رفعت النفساء وجهها
الشاحب من بين الحطب اليابس ، وجعلت تنظر إلى ؛ فقلت
للفتاة : « إن الصالحين من بنى الانسان كثيراً ما توحى إليهم
روح سماوية ، فيحسون ما ألم باخوانهم من متربة وما نزل بهم
من ضيق ؛ وكذلك أمى العزيزة كما ألهمت ما أتما فيه من
عناء ، فأعطتني هذه الخزمة ، وبها كل ما يسد حاجة ذلك الطفل
العارى » : ثم حلت عقدة الحبل وناولتها جبة الوالد ، وشيئاً
من الثياب والقماش ، فشكرت لى صنيعى ، وقالت ووجهها
يفيض سرورا : « ألا إن السعداء لا يدركون أنه لم تنزل في العالم
معجزات تقع . أما في وسط الشقاء فإن الانسان يحس يد الله
وبنائه القادرة ، حين تهدي الصالحين إلى صالح الأعمال .
ألا فليسبح عليك النعمة التي أسبغها علينا الآن بيدك ! » .

« ولقد رأيت النفساء وهي فرحة تلمس يديها الثياب
المختلفة ، كما تما سرها على الخصوص ملمس الصوف في جبة
النوم . ثم قالت لها الفتاة : « لنسرع الآن الى تلك القرية ، حيث

تستريح الجماعة وتقضى ليلتها، ومتى بلغناها فساداً بادر بتسارح
كل ما يحتاجه الطفل، وكل ما يلزمنا . ثم أقرأتني السلام،
وبالغت في شكرى على صنيعى، ثم دفعت الثورين، فانطلقت
المركبة .

« أما أنا فتريثت قليلاً، وحبست الجوادين عن السير برهة،
فقد جعلت أحس في قلبي نزاعاً، وجعلت أتساءل : أنطلق
إلى القرية مسرعاً، وهنالك أقسم ما معى من الزاد بين سائر
الناس، أم أكتفى بأن أعطيه كله لتلك الفتاة، لتتولى توزيعه
بينهم، بما أوتيته من حكمة وعلم، ولم يطل ترددى بل تبعت
الفتاة على مهل، ولحقت بها بعد قليل، وقلت لها مصارحاً :
« أيتها الفتاة الصالحة ! ان الذى أعطتنيه الوالدة ليس قاصراً
على الثياب التى تستر الجسد العارى، بل أضافت إليها زادا
وشراباً كثيراً . وكفى منه فى داخل المركبة شئ ليس بالقليل .
وقد صحت رغبتي فى أن أضع بين يديك هذه الهبات أيضاً،
ولعل هذه هى خير وسيلة للقيام بما عهد إلى . فأنت بلا شك
تتولين تقسيمها بعقل وتدير، أما أنا فيكون اعتمادى على محض
الصدقة » .

صحت رغبتي
كذلك

« فأجاب الفتاة قائلة : « سأتولى توزيع هباتك بأمانة .
ويجب أن ينعم بها من هم أشد احتياجاً إليها » . وعند ذلك
بادرت بفتح صندوق المركبة فأخرجت منه تلك القطع الكبرى
من لحم الخنزير ثم الخبز فقناني النيسد والجمعة . حتى لم يبق
لدى شيء . وما أشد شوقي لأن أعطيها أكثر مما أعطيت لولا
أن قد نفذ ما في الصندوق .

« وقد وضعت الفتاة تلك الهدايا جميعاً عند أقدام المريضة ،
وربطتها ربطاً محكمًا ، ثم مضت في سبيلها ، أما أنا فسقت الجوادين ،
راجعا أدراجي إلى البلدة » .

وعند ما أتم هرم من حديثه ، أخذ الجار الثرثار يتكلم فقال :
« سعيد لعمرى في هذه الأيام : زمن التشرد والاضطراب ،
سعيد جدا من يعيش في داره فريداً وحيداً ، لا زوجة تفزع
إليه ولا ولد . ولهذا أراني اليوم سعيداً ، ولا أعيد بحالي
هذه شيئاً . إذ لست أدعى والداً ؛ وما لي من طفل أرعاه ،
أو زوج أعنى بأمرها .

ولقد كنت غَيْرَ مرةٍ أتوهم الهرب ، فأجمع الغالى

والثمين من المتاع؛ من تُقود مدَّ خرّةً ومن حُلِيَّ خلفتها أمي
البرّة رحمها الله! ولم أفرط في شيء منها حتى الساعة لكنني وجدت
أن لا مفر من ترك الشيء الكثير مما لا يسهل الحصول عليه
فيما بعد . ولقد يعز عليّ أن أدع ورأى تلك الأعشاب
والجذور، وإن لم تكن بالشيء القسيم، فقد بذلت في جمعها
مجهودا غير قليل . بعد هذا اذا بقي مساعدتي من ورأى، فان
في هذا ما يعزني على هجرى لمنزلي . ومتى نجوت بنقودي
وبجسدي فقد أنقذت كل شيء، وما أسهل النجاة على الرجل
الوحيد! .

فقال له هرمن مؤكدا : « ما أراني أيها الجار مقرا لك
على ما تقول . بل أني أعاتبك على التحدث بمثل هذا القول .
أيجوز للرجل ذي الجدارة والفضل، ألا يفكر وقت الشدة
أو الرخاء إلا في نفسه، فلا تحرك قلبه عاطفة؛ ولا يجد لذة
في مشاطرة غيره السرور والحزن . أما أنا فلعمري ما أحسستُ
كالיום رغبة في أن أرتبط برباط الزواج، فكم من فتاة صالحة
تُعوزها حماية الرجل القوى، وكم من فتى حلّ به الشقاء فبات
في حاجة الى امرأة تبعث في قلبه السرور » .

هنا ابتسم الوالد وقال : « أَحْبَبُ إِلَى سَمَاعِ هَذَا الْكَلَامِ مِنْكَ ! وَلَقَدْ سَمِعْتُكَ تَنْطِقُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْحَكِيمَةِ مِنْ قَبْلِ » .

وقالت الأم على الأثر : « حَقًّا بُنَى نَطَقَتْ بِالصَّوَابِ وَإِنَّكَ لَتَرَى فِي وَالِدِكَ خَيْرَ مِثَالٍ لِمَا ذُكِرَتْ . فَلَمْ يَكُنِ الْيَوْمَ الَّذِي ارْتَبَطْنَا فِيهِ يَوْمَ سَعَادَةٍ وَرَخَاءٍ . وَبِرَغْمِ هَذَا فَانْ سَاعَاتِ الشَّدَةِ قَدْ زَادَتْ رِبَاطُنَا وَثُوقًا وَمَتَانَةً ... »

« كَانَ الْيَوْمُ يَوْمَ اثْنَيْنِ فِي وَقْتِ الصَّبَاحِ . وَإِنِّي أَذْكُرُ هَذَا جَيِّدًا إِذْ كَانَ الْيَوْمَ التَّالِي لِيَوْمِ الْحَرِيقِ الْهَائِلِ ، الَّذِي اجْتَنَحَ مَدِينَتُنَا الصَّغِيرَةَ وَدَمَّرَهَا . - أَجَلٌ وَلَقَدْ مَضَى عَلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ عَشْرُونَ عَامًا كَامِلَةً . فَقَدْ كُنَّا فِي يَوْمٍ أَحَدٍ كَمَا نَحْنُ الْيَوْمَ ، وَكَانَ الْهَوَاءُ حَارًّا جَافًا وَلَمْ يَكُنْ بِالْمَكَانِ مَاءٌ إِلَّا الْقَلِيلُ . وَكَانَ النَّاسُ يَتَنَزَّهُونَ ، مُرْتَدِينَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِمْ ، وَقَدْ انْطَلَقُوا إِلَى الْقُرَى وَإِلَى الْحَانَاتِ وَالْأَرْحِيَةِ . فَاشْتَعَلَتِ النَّارُ فَبَجَاءَ فِي طَرَفِ الْمَدِينَةِ . ثُمَّ أَخَذَتْ تَجْتَنَحُ الطَّرِيقَ بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ ، وَفِي أَثَرِهَا رِيَّاحٌ شَدِيدَةٌ التَّيَّارُ قَدْ أَثَارَتِهَا النَّيِّرَانُ . وَلَمْ يَمُضْ قَلِيلٌ حَتَّى التَّهَمَتِ النَّارُ مَخَازِنَ الْغَلَالِ ، بِمَا تَكَدَّسَ فِيهَا مِنْ مَحْصُولِ تِلْكَ السَّنَةِ الْغَنِيَةِ .

الكثيرة الخيرات . واحترقت الطرقات جميعا حتى الميدان ،
والتهمت النار دار والدى وكانت قريةً من هنا ، كما التهمت
هذه الدار أيضا . وما استطعنا أن ننقذ من متاعنا إلا القليل .
« فى تلك الليلة الليلاء بقيت ساهرةً عند المروج فى ظاهر
المدينة ، أحرس الصناديق والفُرُش . الى أن غلبنى النعاس
فنمت ، وعند الصباح أيقظتنى برودة الفجر ، فنظرت فاذا
الدخان المتصاعد والانقاض الملتهبة بين الأسوار والمداخن
العالية . . وقد انقبض لهذا المنظر صدرى .

« وبرغم هذا لم تلبث الشمس أن طلعت فى كامل روعتها
وبهاؤها ، فبعثت فى نفسى روح البسالة والجلد ، فنهضت على
عجل ، وانطلقت وبنفسى رغبةً مُلحةً فى أن أتفقد الموضع
الذى كانت فيه دارنا ، ولأنظر لعلَّ دَجَاجنا قد نجأ ، فلقد كنت
أحبه حباً جمًّا ؛ وكنت بعدُ فى مثل سداجة الأطفال .

جعلت أتمشى فوق أنقاض الدار والحديقة ؛ ولم يزل يتصاعد
منها الدخان ، وقد أصبح المسكن الأمين قفرا بلقعا . ورأيتك
فى تلك الساعة مقبلا من الناحية الأخرى تتفقد المسكن ، وكان
جواد من جيادك محتبسا فى الاصطبل المدمر . وقد تكدست

فوقه كتل من الخشب المحترق والانقاض المضطربة : بحيث
لم يكن للجواد أثرٌ يرى .

وهكذا كنا واقفين : أحدا قبالة الآخر ، مُطْرَقَيْنِ
حزينين ، وقد تداعى الجدار الذى كان يفصل بين داريننا .
فقبضت أنت على يدي وقلت لى : « ما الذى جاء بك الى هنا
ياليزا ؟ ابتعدى فانك تحرقين نعليك ! فان بالانقاض ناراً
حامية تحرق نعلَيَّ ، على ما بهما من غَلْظٍ ومثانة . . ثم حملتنى
بين ذراعيك وأخرجتنى من فناء منزلكم ، الذى التهمته النيران ،
فلم تبق منه سوى الدَّهْلِيز الكبير بقوسه المعقودة ، على نحو
ما نراه الآن . وهناك أنزلتنى ، وجعلتَ تلشمنى ، وجعلتُ
أدفعك عنى ، فتكلمتَ عندئذ بكلمات تنمُّ عن الحب المتين ،
كما تنمُّ عن العقل الرصين . فقلت : أنظرى الى الدار ، كيف
غدت أثرًا بعد عين ! فلا تبرحى أو تساعدينى لأقيم بناءها ،
وأشيد صرحها . وأنا كذلك سوف أعاون أباك على بناء داره .
» لم أفهم لأول وهلة معنى هذه العبارات ، حتى جاءت
أمك الى والدى ، وعُقِدَ لنا — على عجل — زواجٌ ناعمٌ
سعيد . . ومازلت الى اليوم أذكر ، فى شيء من السرور ،

تلك الانقراض المضطربة ، وأرى ماثلة أمام عيني شمس ذلك
اليوم ، وملؤها الروعة والجلال . فلقد رُزقت الحليل في ذلك
اليوم ، ورزقت بعد قليل ولدى البكر ، والمدينة بعد
خراب بلقع .

« من أجل هذا ، يا هرمن ! أحمّد لك هذا الايمان ،
وأناشدك أن تبادر فتختار لك في هذه الأوقات العصية ،
فتاةً صالحة ، تخطبها ، على رغم هذه الحرب الضروس ، وما
بها من تخريب وتدمير . »

وتكلم الوالد بشيء من الحماس قال : « ألا إنه لحاطرٌ
سعيد ما قد خطر لك أيتها الوالدة . والحكاية التي قصصتها
صحيحة في كل جزء من أجزائها . ولكن هنالك حال خير
من تلك الحال . فليس بمُقدَّرٍ لكل إنسان أن يبتدىء حياته
من جديد . فيجد وينصب ، كما كنا نحن نجد وننصب . وإنما
السعيد حقاً من أسلمه الولدان داراً عامرة ، ثم يتسع رزقه
فيزيد في جمالها وزينتها .

« إن البدء في كل شيء أمر عسير . وعسير بنوع خاص
البدء في إقامة منزل وعمارته . وحاجات الانسان كثيرة

متعددة، وأثمانها تزداد في كل يوم. فيسذل المرء جهده كي يزداد ماله . . ولهذا أرجو ياهر من أن تبادر بعد قليل ^{بـ}اختيار زوجة طيبة، تدخل هذه الدار ومعها مهر صالح. والفقى الصالح أولى الناس بالزوجة ذات اليسار. وهو جدير وحقيق بأن تدخل إليه الحسنة، تتبعها الصناديق والأسفاط، فيها الهدايا النافعة. وليس من العبث أن تقضى الأم السنين الطوال، في إعداد الأقمشة، التي تجمع بين الدقة والمتانة من أجل ابتها، وليس من العبث أن يهدي الأقرباء ما عندهم من الأواني الفضية. وأن يفتش الوالد في داخل أدراجة عما خبأ فيها من قطع الذهب النادرة الوجود. ليس هذا كله عبثاً، لأن الفتاة، بكل هذه الهدايا والمنح ستشرح صدر عروسها، الذي اختارها واصطفها على سائر النساء.

وإني لأعلم ما تحسسه الزوجة الفتاة من ارتياح واعتباط، حين تنظر الى البيت الذي اتخذته داراً لها، قترى في المطبخ وفي كل حجرة من الحجرات أوانيا التي جلبت معها، والفراش الذي فرشته، والمائدة التي أعدتها هي وبسطتها . . أجل وإني لمُصِرٌّ على ألا تدخل هذه الدار إلا عروس مجهزة مشورة.

فان الفقيرة لا تلبث أن يحقرها زوجها ، وينظر اليها كما ينظر إلى الخادم ، إذ دخلت الدار وليس معها إلا حقيبة خادم . والرجال قليلو الانصاف وأوقات الغرام سريعة الزوال . . « أجل يا عزيزى هرمن ! لتملأن كهولتى سروراً لو أنك أسرعت ، فاقمتد الى هذه الدار عروساً من فتيات هذه الناحية ، بل من بنات جيراننا : من تلك الدار الخضراء التى أمامنا . والرجل لعمرى من السراة ، وله تجارة وصناعة يزداد بهما فى كل يوم غنى : وأى التجار لا يكسب ويربح ؟ وليس له من البنات إلا ثلاث . ستؤول اليهن وحدهن كل تلك الثروة ، أما الأولى فقد خطبت وقضى الأمر ؛ وبقيت الثانية والثالثة . ولكن لن تبقياً هكذا طويلاً . ولو كنت مكانك ما ترددت حتى الساعة ، بل لبادرت فظفرت باحدى الفتاتين . كما فزوت أنا من قبل بأملك العزيرة . »

لم يجد الفتى بُدّاً ، أمام إلحاح والده وإصراره ، من أن يجيب على مقالته . فقال فى تواضع وحياء : « لقد كانت إرادتى من قبل وفق إرادتك اليوم : أن أختار إحدى بنات جارنا . فلقد

نشأنا ورؤيتنا معاً . ولطالما لعبنا معاً في تلك السنين الغابرة
لدى البئر التي في الميدان . وكثيراً ما وقفت دونهن ، أدفع
عنهن شراسة الصبيان . بيد أن هذه أيام قد خلت . وقد وقر
الفتيات في دارهن بعد أن كبرن . وأصبحن اليوم بعيدات
عن ألعابنا الخشنة .

« أما أدبهن العالی فأمر مسلم به . ولقد كنت أختلف الى
دارهن من حين الى حين ، تبعاً لارادتك ، واستبقاءً للودة
القديمة . ولكنني ما أحسست يوماً سروراً أو اغتباطاً
بصحبتهن والتحدث اليهن . فلقد كن دائماً يجدن في موضعاً
للقصد واللوم . وكان علي أن أتقبل هذا كله منهن ! فأحياناً
ألام لأن ردائي طويل وقماشه خشن ولونه قبيح ذميم .
وآونة ألام لأنني لم أحسن تصفيف شعري وتجعيده . حتى
لقد صممت أخيراً أن أتألق في ملابس وأتزوج ، كما يفعل
أولئك الفتيان من أولاد التجار ، الذين القاهم أبداً هناك في
الآحاد ، والذين تتدلى قطع الحرير من ثيابهم دائماً في فصل
الصيف . لكنني لم أكد أفعل ذلك ، حتى جعلن يسخرن مني
فكان هذا مؤلماً لنفسى ، جارحاً لكبريائى . على أن الذى

اسقمنى وعنائى حقاً أنهن كن ينكرن منى كل كلمة طيبة أو نية
 صالحة اتقرب بها اليهن جميعاً، والى (مينا) الصغرى خصوصاً
 فلقد ذهبت لزيارتهم فى عيد الفصح الاخير، ولبست فى ذلك
 اليوم ثوبى الجديد، وهو المعلق فى الخزانة الآن، ولبست
 شعراً مستعاراً مصنفاً شأن بقية الفتيان، لكنى لم أكـد أدخل
 حتى جعلن يتخالسن الضحك. فلم أبـد اشارة، كأن غيرى
 المقصود بهذه السخرية. وكانت (مينا) جالسة الى البيانو، وكان
 والدهن جالساً يصغى منشرح الصدر، وقد أطربه غناء ابنته،
 أما أنا فقد استعصى على ادراك السمكات التى اشتملت عليها
 الاغانى، ولكنى سمعت اسمين يترددان المرة بعد المرة وهما
 (پامينا) و(تامينو)^(١) ولم أرد أن أبقي صامتاً لا أنطق بحرف. فلما
 انتهى الغناء جعلت أسأل عن القطعة وعن ذينك الشخصين،
 فسكت الجميع وهم يتتسمون. ثم نظر إلى أبوهن، وقال:
 أليس صحيحاً يا صديق أنك لا تعرف من بنى الانسان غير

(١) Pamina و Tamino شخصان فى إحدى أوبرات موزار الشهيرة وهى
 الناي المسحور (Zauber floete). وفى السنة التى تجرى فيها حوادث هذه
 القصة (حوالى سنة ١٧٩١) كانت هذه الأوبرا بعد حديثة جداً، فلا ينتظر من فى
 ساذج مثل هرمن أن يكون قد علم من أمرها شيئاً كثيراً.

آدم وحواء؟» عند ذلك لم يستطع أحد من الحاضرين أن
يمسك نفسه ، فأغربت القتيات في الضحك ، وأرعدا القتيان
ضاحكين ، وقبض الوالد على بطنه يديه . وملكتني أنا الحيرة
فسقطت قبعتي من يدي . وبقي الجميع معمنين في الضحك ،
حتى أثناء العزف والغناء . ولم أطق صبراً على كل هذا فعدت
مسرعا الى منزلي ، وأنا نهبة للكآبة والخجل . فخلعت تلك
الثياب وأودعتها الخزانة ، وانتزعت ذلك الشعر بأصابعي .
وأقسمت لا وطرّنت رجلى عتبة دارهن بعد ذلك اليوم .
وحق لي هذا فان رؤوسهن قد امتلات بالغرور والخيلاء ،
بقدر ما خلت قلوبهن من الحب .

ولقد علمت أنني مازلت أدعى في دارهن (تامينو) الى وقتنا هذا
فقالت لوالدها : « ما ينبغي لك يا هرمن أن تطول موجدتك
على أولئك الطفلات — وما هن في الحقيقة الا طفلات —
ومينا الصغيرة فتاة صالحة ، وكانت أبدا تعطف عليك ومنذ
عهد قريب كانت تسألني عنك . وتحسن لو اتخذتها زوجا لك »
فأجاب الفتى مفكراً : « لست أدري ، غير أن السكدر الذي
استولى على ذلك اليوم قد ترك في قلبي أثراً عميقاً . فبت وما

بي رغبة لرؤية مينا ولا للانصات الى عزفها وغنائها .
 وتكلم الوالد في شيء من الحدة والغضب فقال : « ما أراى
 واجداً منك شيئاً ترتاح اليه نفسى . ولطالما قلت لك هذا
 مراراً وتكراراً . حينما كنت أراك وليست لك فى الحياة لذة
 سوى الاهتمام بالمزرعة وبالحيل . وتلك لعمري أعمال يؤديها
 غلام من غلمان السادة ذوى اليسار . فكيف لمثلها ينصرف
 الابن بدلا من أن يقوم بما يرفع رأس أبيه بين أهل المدينة .
 ولطالما كانت أمك تعلقنى بالأمانى الكذاب ؛ حينما كنت
 عاجزاً وأنت بالمدرسة ، عن تعلم الكتابة والقراءة وحفظ
 الدروس كما يفعل سائر الفتيان . فكنت الاخير من بينهم
 جميعاً . ولعمري لقد كانت تلك حالا لا مفر منها ، مادام
 صدر الشاب خالياً من الشمم والكبرياء . فلا يطمح يبصره
 الى المعالى .. آه لو أن أبى عنى بأمرى عنايتى بأمرى . فأرسلنى
 الى المدرسة وخصص لى المعلمين والمؤدين ! أجل لو أنه فعل
 هذا كنت اليوم شيئاً آخر غير صاحب خان (الاسد الذهبي) . »
 عند ذلك نهض الغلام واقرب من الباب فى صمت وفى سكون
 وهدوء يريد الخروج لكن الوالد أتبعه هذه الكلمات وهو

حانق غاضب : « أجل فلتذهب ولتصرف عنا ! وأنا عالم بما
فى رأسك من عناد واصرار . اذهب اذن وانظر فى شئون
الدار والمزرعة . كى لا أسمعك من التقريع أمره وأقساه !
لكن حذار أن تجلب يوماً الى هذه الدار فتاة من بنات
الفلاحين رعاة الابقار لتكون لابنى زوجا ! لقد عشت طويلا
وتعلمت كيف أعاشر الناس وكنت أحتفى بهم . فيرجعون
قريرى الاعين ، منشرح الصدر . وتعلمت كيف ألاطف الغريب
وأدخل على قلبه السرور . ولهذا لا بد لى فى النهاية من أن
تكون كى تنق فتاة طيبة . تنسينى بحلاوة خلقها ما قاسيت
من مرارة وعناء . ولا بد أن تجيد العزف على البيانو . ولا بد
أن تصبح دارى ملتقى الطبقات الأنيقة من أهل المدينة .
يفدون اليها ويقبلون على زيارتنا كما يفعلون أيام الآحاد فى
دار جارنا . »

وهنا أمسك الفتى بمزلاج الباب . وفتح بهسكون وغادر
الحجرة .

....

النشيد الثالث

طاليا^(١) THALIA

(الرهة الكوميديا)

سكان المدن

هكذا اعتصم الفتى المتواضع بالفرار، هرباً من ذلك
الخطاب العنيف ..

غير أن الوالد لم تهبطاً تأثرته، وعاد الى الكلام كما بدأ .
فقال : « انك لن تستخرج من إنسان ما ليس فيه . وهيهات
أن أشهد تحقيق أمنيّة العزيزة التي آمنّاها أبداً : وهي أن الولد
يجب ألا يكون مشابهاً لأبيه ، بل أعلى منه درجات . وإلاّ

(١) في هذا الفصل يسخر المؤلف بالطبقات المتوسطة (البورجوا) . وكلمة
« سكان المدن » لا تؤدي تماماً معنى بورجوا : فهؤلاء عادة جماعة ذوو يسار يتشبهون
بالخاصة ولكن عقليتهم السطحية تقرّبهم من العامة . فالهة الكوميديا اذن تلائم هذا
النشيد تماماً . وصاحب الفندق يمثل هذه الطبقة أحسن تمثيل هو والصيدلي .

فأين يكون مصير الأسرة، بل مصير المدينة كلها، اذا لم يكن همُّ كل فرد أن يحرص على تالده، ويستحدث الطريف الجديد، ويعنى أبدا بتحسين ما لديه ؟ ..

« ذلك هو الدرس الذى علمنا إياه الزمان . كما علمتنا إياه البلاد الأخرى . . وما ينبغى للانسان أن يكون مثله كمثل نبات (عيش الغراب) ، ينمو فى الثرى ، ثم يدركه العطب فى المكان الذى نماه وأخرجه ، دون أن يترك وراءه أثرا فيه مظهر من مظاهر الحياة .

« وحسب المرء نظرةً يلقيها على الدار ليعلم من صاحب الدار ، وما مبلغ ذكائه وعقله . كما نعلم كيف تُدار المدينة وكيف تحكم لمجرد خطوات نخطوها فى طرقاتها (١) . فحيث ترى الأبراج قد تداعت ، والأسوار قد مالت . والخنادق والأزقة قد تكدست فيها القمامة وحيث الأحجار قد تقلقلت فى كل بناء ، فلا ترد الى مواضعها . وحيث الدعائم توشك أن تنهار ، والحاجة مُسلحة الى دعائم جديدة . فحيث ترون ذلكم كله

(١) يجب تنبيه القارئ الى أن ألمانيا فى ذلك الزمن كانت مقسمة عدة وحدات مستقلة . تتركب أحيانا من مدينة صغيرة وقطعة من الارض تحيط بها .

فأيقنوا أن المدينة قد ساءت حكومتها . . لأن الطبقات العليا
إذا لم تفرض النظافة والنظام فرضا على من دونها، فسرعان
ما يعتاد أهل المدينة القذارة والاهمال، كما يعتاد الشحاذ لبس
الرداء الخلق .

« كثيرا ما وددت لو أن هرمن يبادر بالقيام ببعض
رحلات . . فلا أقل من أن يزور استراسبورج وفراנקفورت،
ويرى مدينة مانهم الجميلة البناء والتنسيق . فان من شاهد المدن
الكبرى وما بها من نظافة ورؤء، فلن يقر له قرار حتى يعجل
بتجميل مدينته مهما كانت صغيرة .

« أرايتم كيف يعجب الغرباء بأبواب مدينتنا بعد إصلاحها،
وبالبرج الناصع البياض، وبالكيسة بعد تجديدها؟ أليس الكل
معجبا بطرقنا المرصوفة، وبالقنوات ذات المياه الجارية المغطاة،
المنتشرة في كل ناحية . وهي على كثرة فائدتها مصدرة للسلامة
والأمن، وبواسطتها استطعنا مكافحة النيران عند بدء اشتعالها .
« فحدثوني بالله، ألم تتم هذه الأعمال كلها منذ ذلك الحريق
المروع؟ ولقد كنت في مجلس المدينة ست مرات، متوليا
رأسه الأعمال العامة، فقممت بما جعلني جديرا بأن يهتف لي

أهل المدينة وأن يبذلوا لى جزيل شكرهم . فلقد كنت أقترح الخطط . ثم أمضى فى تنفيذها ، بل وفى تنفيذ ما اقترحه سواى من أهل المدينة ثم عجزوا عن إكماله وإتمامه . واخيرا دب المجلس فى أعضاء المجلس جميعا ، فجعل كل منهم يجد ويدأب ، حتى لقد أصبح فى حكم المقرر إنشاء ذلك الجسر العظيم الذى يصل المدينة بالطريق الجديد .

« لكنى أخشى كثيرا أن الشباب لن يتخذنا مثالا وقدوة ، فهم إما فريق لا يفكر فى غير السرور والملاذات ، ولا يعنى بغير الأنيق من اللباس ، والتأفف من الأمور . وفريق آخر يقبع فى عقر داره ، ويختفى وراء موقد النار مدى الحياة .. وإنى لأخشى أن هرمن سيبقى أبدا من هذا الطراز . »

فقالت الأم وهى تلك المرأة الصالحة العاقلة : « انك أيها الوالد ما كنت يوما منصفًا لابنك . وانك بهذا تجعل من العسير أن يتحقق رجائك فيه .

وليس فى وسعنا أن نكون أبناءنا وفقا لأهوائنا . أليسوا هبةً وهبنا الله إياها ؟ فما علينا إلا أن نحرص عليهم ، ونبذل لهم كل حب ورعاية ، ونحسن تربيتهم بقدر استطاعتنا ، وبعد ذلك

تركهم وشأنهم . فان لكل منهم مواهب ، يستخدمها وينتفع بها ،
غير مواهب الآخرين . ولن يصيب الواحد منهم صلاحا
أو سعادة في الحياة إلا بما يقتضيه مشربه ونزعه .

« واني لن أسمح لأحد أن يضع من قدر ولدى هرمن ،
وأنا أعلم علم اليقين أنه حقيق وجدير بتلك الثروة التي ستؤول
يوما إليه . . فهو ربُّ منزلٍ قلَّ أن يوجد له نظير . ومثال
يقتدى به أهل الحضر وأهل الريف على السواء . وأرى من
الآن ، وأنا واثقة بما أرى ، أنه لن يكون الأخير في مجلس
المدينة ودار ندوتها . لكنك بهذا اللوم والتقريع ، في كل
لحظة وآونة ، تكدر صفاءه ، وتجعل صدره ضيقا حرجا ،
كما فعلت الساعة » .

وبعد أن قالت هذه الكلمات ، غادرت الحجرة مسرعة ،
تبحث عن نجلها ، لعلها ان لقيته أن تأخذ في ملاطفته ومؤانسته ،
وأن تعيد السرور الى قلبه . وهو بهذا كله جدير .

ولم تكد الأم تخرج حتى ابتسم الوالد ، وقال :

« حقاً إن النساء لجنس غريب؛ وما هن في الحقيقة إلا كالأطفال،
تسير كل واحدة منهن حسب ما يمليه هواها، وعلينا نحن أن
نسترضيهن بالملاطفة حيناً، وبالشاء عليهن حيناً.

« غير أنى ما زلت مصراً على صحة ذلك المثل الذى علمنا
القديماء إياه وهو: من لم يسر إلى الامام، رَجَعَ القهقرى ».

فقال جارهم الصيدلى متمهلاً، كأنما يزن الكلام وزناً (١):
« أوافقك كل الموافقة على ما قلت. وأنا نفسى أتلتمس الأحسن
وأشده دائماً؛ على شرط ألا يكون غالى الثمن، مع جودته
وجدته. وإلا فإذا يجدى على الانسان دأبه وجده فى اصلاح
ما لديه، ظاهراً وباطناً، إذا لم يكن كيسه مفعماً بالمال؟ ان
ساكن الحضر محدودة موارده جداً، فهو قد يرى الشئ الصالح
فلا تجرؤ نفسه أن تشبهه، وما دام كيسه قليل النقود وحاجاته
كثيرة العدد، فلا عجب إذا رأيتـه أبدا عاجزاً، مكتوف
اليدين.

« وأنا نفسى أود أن أقوم بأعمال شتى؛ لكن من ذا الذى

(١) جعل المؤلف من هذا الصيدلى مثلاً للرجل الذى يقول أنه الاقوال بشكل
من يتكلم كلاماً ذا أهمية كبرى. ولهذا هو يزن كلماته وزناً.

لا يحجم ولا يتردد أمام النفقات الباهظة ، خصوصاً في هذه
الأزمة الخطيرة؟ فمذ عهد بعيد أفكّر في تنميق منزلي وتجميله
طبقاً للشرب الحديث؛ بحيث يصبح لنوافذه الفسيحة زجاج
كبير لامع برّاق. ولكن من منّا يستطيع أن يقتدى بذلك
التاجر الذي يعرف على رغم كثرة أمواله، كيف يحصل على
أحسن الأشياء بأبخص الأثمان؟ أنظر إلى داره الجديدة التي
بناها قبالتنا! ما أجمل أعمدها اللؤلؤية البيضاء ومن ورائها
الحديقة الخضراء. وانظر إلى زجاج النوافذ وحجمه الكبير!
وكيف يلعب كأنه مرآةٌ وضئيلةٌ. حتى لقد تلاشت بجانبه سائر
المنازل في هذا الميدان... ومع ذلك ألم يكن يتي (صيدلية الملاك)
وبيتكَ أنت (الأسد الذهبي) أحسن بيوت هذا الميدان جميعاً
بعد الحريق بزمن وجيز؟ ولقد كانت لحديقتي شهرة في سائر
الأقاليم. وما من مسافر إلا وقف لديها لحظة ينظر من خلال
السيّاح إلى التمثال الحجري للشحاذين، والصورة الملونة للأقزام.
ولكم دعوت الأضياف إلى تناول القهوة في الغار المشيد بالحديقة -
وهو الآن قد أخذ يتداعى ويعلوه الغبار - فكانوا جميعاً يعجبون
أشد الإعجاب بذلك الضياء المتعدد الألوان المنبعث من القواقع

المنضدة أحسن تنضيد . . وكان الخبير بهذه الأشياء ينظر حائرا
إلى لمعان الرصاص والمِرْجَان المصطنع . وكذلك كانوا
يعجبون بصورة في الصالون تمثل سيدات وسادة يتزهون
في الحديقة ، لا بسين أبهى الثياب ، ويتناولون الأزهار بأيديهم ،
أو يمسكونها بأطراف الأصابع .

« أما الآن فمن ذا الذي يلقى مجرد النظرة على شيء من هذا ؟
إني أنا نفسي - لشدة غيظي - قلبا أخرج الى الحديقة الآن .
وقد أصبح من الواجب تغيير كل شيء ، لكي يصبح وفاقا
للدوق الحديث كما يزعمون . ويجب أن تظلي الأخشاب جميعا
باللون الأبيض وكذا المقاعد الخشبية . ويجب أن يكون كل شيء
بسيطا خاليا من كل حلية . فلا ينبغي أن تكون هنالك أخشاب
محفورة أو مذهبة . والأخشاب الأجنبية هي أعز أنواع
الخشب وأغلاها .

« ولهذا تراني على شدة ولعي باقتناء الجديد ورغبتى في مسامرة
الزمن ، بأن أُغَيَّرَ وأبدل أثاث المنزل من آن لآن ؛ أجد الناس
جميعا يحجمون حتى عن تبديل أقل الأشياء ، وأصبح العمال
بحيث لا يستطيع أحد دفع أجورهم .

« ولقد خطر لي حديثاً أن أكلف من يقوم بتذهيب
الملاك ميكائيل ، وهو كما تعلم شعار الصيدلية ، وكذا الثَّنين
المخيف الملتف حول رجليه . ولكنني اضطررت ، لارتفاع
البُيْن ، أن أتركه ليكتسب اللون الأسود على مضى السنين . »

....

النشيد الرابع

يوتريا EUTERPE

(الرنة السمر الغنأى)

الأم وابنها

وبينما الرجال يتجاذبون أطراف الحديث : ويلتمسون
فى الحديث ما استطاعوا من لهو وتسلية ، كانت الأم منهمكة
فى البحث عن فتاها . فتفقده أولاً خارج البيت على المقعد
الحجرى الذى اعتاد الجلوس عليه . فلما لم تجده هناك انطلقت
الى الاصطبل لعله قد ذهب هناك : الى تلك الصافنات الجياد ،
التي اشتراها وهى أمهار ، وأبى أن يقوم على رعايتها أو يُعنى
بها أحد سواه .

أنبأها الخادم أن مولاه انطلق الى الحديقة ، فجعلت تجتاز
الفناءين على عجل ، تاركة وراءها الاصطبل ، والاجران

المحكمة البناء . ودخلت الحديقة : فاذا هي فسيحة الأرجاء ، قد امتدت الى سور المدينة ؛ وقد أقرَّ عينها ما رآته فيها من تماٍ وازدهار . فجعلت تقيم المتداعي من الدعائم التي تستند عليها غصونُ التفاح ، أو فروعُ الكُمثرى ، المجلَّلة بالثمار . وتنتزع الحشرات والديدان عن الكرب الذي أمعن في النمو . كانت تعمل هذا كله وهي سائرة في طريقها ، لأن المرأة النشيطة لا تخطو خطوة خلوا من النفع والفائدة .

وأخيراً وصلت الأم الى نهاية الحديقة ، حيث الجوسق يكسوه الياسمين . لكنها لم تجد للفتى أثراً لاهنالك ولا في سائر الحديقة . بيد أنها لاحظت أن باب الجوسق منفتح قليلا وهو باب صغير قد رُكِّبَ في سور المدينة . وهذا دليل الخطوة والرعاية التي نالها أحد الأجداد إذ كان للمدينة عمدة من خيار العمدة .

خرجت الأم من ذلك الممر الى ما وراء السور . وهنالك أبصرت الكروم يحيط بها سياج متين الصنع ؛ وقد غُرست على منحدرات تسطع فيها أشعة الشمس . وقد امتدت غُرُوشها صاعدة على تلك المنحدرات .

صعدت الأم وسط هذه العرائش ، وقدراقها مارأته
من وفرة العناقيد . حتى ما تكاد الأوراق أن تخفيها .
وكان بين العرش طريق مُظْلَل يَرْتَقى الى أعلى الكشيب .
ويُصْعَدُ اليه بدرجات غير منتظمة من الحجر . ومن العرش
كانت تتدلى عناقيد العنب الرّازقي والمسكاتى ، والى جانبيها
عنب بَنَفْسَجِيّ اللون ، قد امتاز بحباته الضخمة .

هذه الكروم جميعاً قد غرست من قبل بحمد وعناية ،
لكى تتحلى بثمارها مائدة الضيوف بالفندق . وعلى الكشيب ،
غير هذه العرش ، شجرات مبعثرة حباتها أصغر حجماً ، ومنها
تعصر تلك الصبء الغالية .

جعلت الأم تصعد الكشيب ، وقلبها يحس السرور سلفاً
لاقتراب الخريف ، ولما يُوْذَنُ به من أعياد يحتفل فيها أهل
الناحية . فيجتنون أطيب العناقيد ، ثم يدوسونها بأرجلهم (١)
ويجمعون العصير فى الخواوى . وفى المساء - تسكريماً للغلة الوافرة -
تُرى الألعاب النارية وهى تملأ الفضاء بأضوائها وضوضائها .

(١) عصر الخمر بواسطة الأرجل (بعد غسلها بالطبع) كان شائعاً فى ذلك
الوقت . كما أنه ذائع فى مصر لاستخراج الزيت من بعض البذور مثل السمسم وغيرها .

لم تلبث الأم أن ازداد قلقها ، حين نادت ولدها مثنى
وثلاث . فلم يجبها غير رجع الصدى ، ترده أبراج المدينة ...
ولم يكن من عاداتها أن تقش عنه ، ولا من دأبه أن يذهب
بعيداً . وما كان له أن يذهب دون أن ينبها بذهابه كي يهدأ
روعها ، ويطمئن قلبها .

على أنها لم تزل ترجو أن تلقاه في هذا الطريق ، لأنها
رأت أن بابي الكرم : الأسفل والأعلى ، كلاهما مفتوح .
فاجتازت البابين الى الحقول التي بظهر الكشيب ، وهي أيضاً
من ممتلكات الأسرة . وقد سرها منظر البر ، قد مالت سنباله
مُوقرةً بما تحمل من حبٍّ ذهبي .

جعلت تمشي وسط المزرعة في ممر ضيق ، ووجهتها
دوحة الكُمثرى القائمة على ربوة تلي الكشيب . وهي الحد
الذي تنتهي اليه ممتلكات الأسرة .

وهذه الدوحة علم بارز ، تلمحه العيون من سائر أطراف
الاقليم ، ولثمارها شهرة واسعة ؛ ولا يعرف أحد من الذي
غرسها . . . وكثيراً ما يأوى إليها الحاصدون ورعاة الأبقار ،
فيجلسون في ظلها ساعة الظهيرة ، ولهذا كان تحتها مقاعد من

الحجر الخشن والعشب اليابس .

ولم يكذب ظن الأم ، فلقد كان هرمن هناك حقاً ، كان جالساً في ظل الشجرة معتمداً ذراعيه . وكأما ينظر إلى الجبال ، مولياً ظهره الى الناحية القادمة منها أمه . فتقدمت هذه نحوه في هدوء ورفق ، ولمست كتفه بيدها . فالتفت اليها فجأة ، فرأت الدمع يترقق من عينيه .

فقال لها وهو كالماخوذ : « أماه إنك أتيتني على غرة ! » وجعل يكفكف دمعته على عجل

فقالت الأم ، وأحزنها مارأته : « ما هذا ، أتبكي يا بني ؟ إني أنكر هذا منك ، وما عهدتك يوماً بالذي تدمع عيناه ! قل لي ما الذي انقبض له صدرك وألمت له نفسك ، ودفع بك الى الانفراد في ظل هذه الشجرة ؟ ولم يكفك هذا حتى جعلت تذرف الدمع ؟ »

فمالك الفتي نفسه وقال : « إن الذين لا تأخذهم عاطفة رحمة على أولئك الشريرين ، هم أناس صدورهم من نحاس ، وليس بين جوانحهم قلوب . وقليل العقل جدا من لا يعنى في هذا الزمن العصيب بسعادته وسعادة وطنه . . . ولقد ألمت

يا الذكور ابن
احدى عشرة سنة
في ظل شجرة الزيتون
في (درب الحلي)
!!!

وفي ليرة العبد
ومعه بندية
صيد !!!
لحق به
امه !!!
والعظمة
تلك الام
!!!

نفسى اليوم لما سمعته بأذى وما أبصرته بعينى ، ونظرت الآن
الى ما حولى : فرأيت هذه المزارع المترامية الأطراف ،
تكسو الكشبان والسهوب ، المحيطة بنا من كل صوب :
ورأيت السنابل الذهبية ، وقد مالت تنتظر الحصاد . والفاكهة
اليانعة وتوشك أن تكثظ بها خزائننا . . . ولكن ماذا يجدى
هذا كله والعدو على أبوابنا ؟

« ولئن قيل إن نهر الرين بتياره المتدفق يحمينا ويعصمنا ،
فلأى نهر وأى جبل يستطيع أن يقينا بأس ذلك الشعب الخفيف ،
الذى يزحف علينا كأنه الريح العاصف ذات البروق والرعود .
وهاهم أولاء قد أهابوا برجالهم شباناً وشيباً ، واحتشدوا
زمرة فى إثر زمرة ، وفوجاً وراء فوج . وأخذوا يزحفون
علينا بعنف ؛ وهم فى عديدهم الهائل لا يرهبون الردى ، ولا
يُقلُّ لهم عزم . ثم بعد هذا نرى من الألمان من يجرؤ على البقاء
فى داره ، كأنما سولت له نفسه أن سوف يُفلت مما يتهدد
الناس جميعاً من الويل والثبور .

« فيا أيها الأم العزيزة ، إننى اليوم كدت أتميزُ من الغيظ ،
إذ ذكرت أنهم قرروا اعفائى ، حينما اختاروا المقاتلين من

ما اعظم الشدة
بينك وبينه
في تلك الفترة

أهل المدينة . لست أنكر أنني الابن الوحيد ، وأن بيتنا كبير ،
وأعمالنا ذات شأن وخطر . ولكن أما كان أجمل بي وأجدر
أن أقف هناك على الحدود مدافعاً ومانعاً ، من أن أبقى هنا
أنتظر الشقاء والاستعباد ؟ أجل وبهذا تحدثني نفسي . وإني
لأُحسُّ في أعماق قلبي بأساً وعزماً يدفعاني لأن أحيي للوطن
وأموت للوطن ، وأكون للآخرين قدوة ومثلاً .

« ولعمرى لو أن شباب الألمان بكامل قوتهم احتشدوا
على الحدود ، مجتمعين على ألا يهينوا أمام العدو ؛ إذن لما
استطاع أن يطأ هذا الثرى العزيز بأقدامه ، وأن يلتهم ثماره
اليانعة أمام أعيننا ، وأن يتحكم في رجالنا ، وأن يسلبنا
نساءنا وبناتنا .

« انظري يا أماه ! إني قد قرَّ رأيي ، وصح عزمي على أن
أبادر الساعة ، بل هذه اللحظة ، الى إِمضاء ما أراه عدلاً
وصواباً . . ولا خير في تفكير طويل ، قد لا يَهْدِي الى
الرشد دائماً . وما من داع الى أن أعود الى دارنا ؛ بل أنطلق
من هنا الى المدينة رأساً ، فأقدم الى الجند هذه الذراع وهذا
القلب من أجل خدمة الوطن » .

لست أمان
دأوت من قبل
!!!

يقال: قلله
نظره إلى المقلد
« فهل يصبر الوالد بعد هذا على أنى لست ممن يحيش
بصدرهم طبع كريم ، أو يتطلعون بأبصارهم الى المعالى ؟ »

سالت عبرات الأم الطاهرة — وهى سرعان ما تدمع
عينها — وأجابته بعقل وروية : « أى طارىء يابئنى قد بدل
من طبعك ومن خلقك ، فأصبحت لا تخاطب أمك بتلك
الضراحة التى عودتها إياها بالأمس ، وقبل الأمس . وأمست
وما تحدثها بحقيقة ما تضره وما تريده ؟ لو سمع قولك الآن
ثالث لخدعته عبارتك وحديثك الخطير : ولأنتى عليك أطيّب
الثناء ، وحكم بأن عزمك هذا من أشرف الأمور وأجلها .
« أما أنا فانى ألومك ، لأننى أدرى بك وأعرف ...
إنك تكتم فى قلبك سرا ، وتخفى خلاف الذى أبديت ..
وأنا أعلم أنك لست ممن يستهويهم دق الطبول وصوت الأبواق ،
ولا ممن يلذ لهم أن يظهرُوا أمام الفتيات فى ثوب الجنديّة
البراق . وبرغم ما أنت عليه من شجاعة وإقدام ، فإن مهنتك
التى تهواها هى أن ترعى المنزل ، وتعنى بالمزرعة . إذن فلتجبنى
إجابة صريحة : ما الذى دفعك الى ما عزمت عليه ؟ »

فأجاب الفتى : « لقد أخطأ ظنك يا أماء ! فان المرء لا يبقى
على حال مدى الأيام . والفتى ينضج فيغدو رجلا . وأولى
له أن ينضج في هدوء وسكون ثم ينضج بجليل الأعمال ، من
أن يكون نضوجه وسط ضوضاء حياة مضطربة جامحة ،
طالما كانت نكبة على الفتیان . . . وإني برغم ما كنت عليه
أبدأ من الهدوء ، قد نما في صدرى قلب حساس يبغض الظلم
والأذى . وأصبحت قادراً على التفريق بين ما في هذه الحياة
الدنيا من أمور ومذاهب . ولقد كان العمل في المزرعة سبباً
في أن اشتد ساعداى ورجلاى ..

« إن هذا الذى أزعمه صحيح كله ، وفى وسعى إثباته
وتوكيده ... غير أنى لست أنكر أنك أصبت أيتها الأم ! فى عتابى
ولومى . فلقد أخذت على كلمات قلتها الآن ، فيها شائبة كذب ،
وفيه شائبة رياء . وإني أعترف لك بأنى لست أبغى هجر الديار
خوفاً من الخطر المحقق ، أو من أجل فكرة سامية تدفعنى
لأن أكون للوطن عوناً ، وعلى الأعداء حرباً . . . هذه عبارات
فُتت بها لعلى استر بها عنك ما بقلبي من وجد يكاد أن يشقه
ويمزقه . فذرينى الآن أمضى ما عزمتم عليه . فلئن أصبحت

وما يجيش بصدري سوى آمال ضائعة ، فأجدرُ بهذه الحياة
أن تذهب في إثرها .

« وإني لأعلم علم اليقين ، أن الأفراد إنما يسيرون الى
الدمار من غير جدوى ، إذا لم يستشعروا المنفعة العامة فيما
يأتون من الأعمال » .

فقالت الأم العاقلة : « إمض في حديثك ؛ وقص على كل
شيء ؛ من جليل أو حقير ! .. إن الرجال فيهم عنف وشدة .
فلا يلتمسون من الوسائل إلا ما فيه غلوٌ وإفراط . وبرغم
شدتهم وعنفهم فانهم كثيراً ما تخرجهم العقبات التي تعترضهم
عن الجادة القويمة . أما المرأة ففاهرة في التماس أواسط الأمور .
وتعرف كيف تسلك أحياناً طريقاً بعيدة توصلها الى غايتها
ومقصدها .

« فقص على الآن كل شيء . ولتحدثني بما أثار أشجانك
بمثل هذا العنف الذي مارأيت منكَ يوماً ، وبما أهاج الدم في
عروقك ، وأسال الدمع من عينيك ، على الرغم منك » .
هنالك خان الفتى تجلده ، وغلبه الحزن والشجن . فجعل
يبكى وينتحب ، مستنداً الى صدر أمه : وقال بصوت فيه حزن

ورقة : « إن الذى قاله اليوم أبى قد جرحنى جرحاً دامياً ،
ما أظننى أستحق هذا منه اليوم ، وما أظننى كنت يوماً مثله
مستحقاً . فلقد كنت وليس أحب الى نفسى من تمجيد أبوى
وإعزازهما . وما كنت أرى فى الحياة من هو أكثر عقلاً
وأحكم رأياً من هذين الذين ربيانى صغيراً . ثم جدّ فى إرشادى
وتأديبى طوال عهد الطفولة المظلم .

« ولطالما كنت أحمل الاساءة والأذى من أترابى ، إذ
يقابلون حركاتى البريئة بالحقد والموجدة : وقتلاً كنت آبه لهم ،
أو أقابل منهم الأذى بمثله . . بيد أنى إذا رأيتهم يهزأون بأبى
حين يخرج من الكنيسة تكسوه الهيبة والوقار ، أو يسخرون
من الرباط المعقود حول قبعته ، أو الأزهار المطرزة على
جبّته التى كان يلبسها فى جلال وأبهة — وهى الجبة التى أهديت
اليوم — فهناك كان يأخذ الغضب منى مأخذه ، فأوسعهم
لكما وضرباً ولكراً ، لا أعرف ولا أبالى أين تقع ضرباتى
منهم . ثم ينصرفون وهم يقولون ويتنجبون ، والدم يجرى
من أنوفهم مدراراً ، ولا يكاد الواحد منهم أن ينجو من وابل
الضرب واللطم إلا بشق النفس .

« بعد ذلك جعلت أكبر وتزداد سنى ، فيزداد ما أكابده
من والدى وما أعانى . إذ كان يجعلنى غرضاً للسهام التى يريد
أن يرمى بها الغير . فكلما لقي فى مجلس المدينة عنتاً أحفظه ،
كنت أنا الذى أدفع الثمن لما لاقاه من زملائه من نزاع ودسائس .
حتى لقد كنت أنت تأسين لى وترثين لما أعانى .
« ولقد كنت محتملاً لهذا كله ، مستشعراً أبداً أن للآباء
علينا حرمةً وفضلاً ، إذ ليس همهم من الحياة إلا أن يكثروا
الجمع والاقتناء من أجلنا ، ولقد يزهدون فى كثير من متاع
هذه الحياة كى يدخروه لنا معشر الأبناء . . لكننى —
ويا للأسف — لا أرى السعادة كل السعادة فى هذا الجمع فى
الحاضر لكى نَنعمَ به فى المستقبل . . أجل لست أرى السعادة
فى تكديس المال : كُدُساً على كدس ، والأرض : فداناً
إلى فدان ، مهما حسُنت شكلاً ومنظراً . . لأن الوالد فى
أثناء هذا كله تتقدم به السن ، والأبناء يكبرون . وليس لهم
من نعيم يَوْمِهِم نصيب ، والمستقبل أبداً يَوْمُهُم ويُنصِبُهُم .
« أنظرى إلى ما يحيط بنا من هذه المزارع الوافرة . وإلى
هذه الكروم والحدائق ، من ورائها الأجران والاصطبلات ،

وكلاهما مرصوفة منسقة ، المتاع يلي المتاع . فما أبدعها جميعاً
وما أكثر خيرها !

« ثم انظري بعد هذا إلى طرف الدار ، وإلى حجرتي
الملتصقة بالسقف ، والتي تبدو لنا نافذتها من هنا ! تعود الآن
إلى خاطري ذكري ليال قضيتها هناك ، انتظر طلوع القمر
في الليل ، وبزوغ الشمس في الصباح ، مكتفياً بساعات قلائل
من النوم الصحيح العميق . . كنت أنظر حولي فأحس
الوحدة ، ولا أرى في الحجرات أو في فناء الدار ، أو في
الحديقة المزهرة والحقول المنبسطة فوق الكشبان . لا أجد في
هذا كله إلا خلاءً مجدياً قفراً . وأظنني أصبحت تُعوزني الحليمة ! »
فردت الأم بتعقل وفهم وقالت : « ان والدك ووالدتك لأشد
رغبة منك في أن تتخذ لك شريكة في الحياة ، فتصبح أيامك
ولياليك ناعمة راضية . ولطالما حاولنا اقناعك بأن تختار لك
فتاة ، بل لقد دفعناك إلى ذلك دفعاً . بيد أنني لست أجهل أنه
إذا لم تأخذ الساعة ، أو إذا لم تظهر الفتاة المنشودة ، فقد يلبث
الاختيار مُعلّقاً زمناً طويلاً . فيسوفُ المرءُ ويوجل ، خشية
أن يسيء الاختيار .

« لَكِنْ قَلْبِي يَحْدِثُنِي بِأَنَّكَ قَدْ اخْتَرْتَ وَقَضَى الْأَمْرَ . وَكَأَنِّي
أَرَى قَلْبَكَ قَدْ شُغِفَ ، فَبَاتَ أَكْثَرَ إِحْسَاسًا مِمَّا عَهْدَنَاهُ .
إِذْ أَصْدُقْتَنِي الْخَبَرَ الْآنَ . فَإِنَّ نَفْسِي قَدْ أَحْسَسَتْ الْحَقِيقَةَ مِنْذُ
حِينَ . إِنْ الَّتِي اخْتَرْتَهَا هِيَ تِلْكَ الْفَتَاةُ الشَّرِيدَةُ . »

فَأَجَابَ الْفَتَى بِجَهَاسٍ : « لَقَدْ أَصَبْتَ يَا أُمَاهُ ! إِنَّهَا هِيَ .
وَلَئِنْ لَمْ يُتَيْخَلَّ أَنْ أَصْطَحِبْهَا الْيَوْمَ إِلَى دَارِنَا عُرُوسًا وَزَوْجًا ،
فَإِنَّهَا سَتَمَضِي فِي طَرِيقِهَا ، وَقَدْ تَخْتَفِي فَلَا أَرَاهَا بَعْدَ الْيَوْمِ ،
بِسَبَبِ هَذِهِ الْحَرْبِ الضَّرُوسِ ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنْ حُلٍ وَتَرَحُّالٍ
وَأَسْفَارٍ . وَلَئِنْ فَقَدْتَهَا ، فَسَتَعْدُو هَبَاءً كُلِّ هَذِهِ الثَّرْوَةِ ،
وَهَبَاءً مَا تَأْتِي بِهِ السَّنُونَ الْمُقْبِلَةُ مِنْ خَيْرَاتٍ ، وَالِدَارُ الَّتِي أَسْكُنُ
وَالْحَدِيقَةُ الْغَنَاءُ سَوْفَ تَنْبُو عَنْهُمَا نَفْسِي . بَلْ وَأَنْتِ أَيُّهَا الْأُمُّ
الْعَزِيزَةُ لَنْ تَجْدِي إِلَى تَسْلِيَتِي سَبِيلًا . لِأَنَّ الْحُبَّ ، حِينَ يُوثَّقُ
رِبَاطُهُ ، يَحُلُّ عَقْدَةَ كُلِّ رِبَاطٍ آخَرَ . وَلَيْسَتْ الْبَنْتُ وَحْدَهَا
هِيَ الَّتِي تَهْجُرُ وَالِدَيْهَا مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ الَّذِي اخْتَارَتْهُ وَارْتَضَتْهُ ،
بَلْ كَذَلِكَ الْفَتَى يَنْسَى أَبَاهُ وَأُمَّهُ إِذْ يَرَى الْفَتَاةَ الَّتِي اخْتَصَبَهَا
بِالْحُبِّ تَتَوَارَى عَنْ عَيْنَيْهِ .

« فَدَعْنِي الْآنَ أَنْطَلِقَ إِلَى حَيْثُ يَقْدَفُ بِي الْيَأْسُ . فَقَدْ

قال والدى فى هذا الأمر كلمته القاطعة ، وهيهات أن تكون
داره بعد اليوم دارى ، مادام يأتى أن تدخلها الفتاة التى أهوى
من بين سائر النساء . »

فأجابته الأم على الفور : « ما أشبه الرجلين المتخاصمين
بالصخرة تواجه الصخرة ! كلاهما قد امتلأ جموداً وكبراً .
ولا يريد أن يقترب من الآخر قيد أنملة . أو أن يحرك
لسانه بكلمة طيبة تلقاء الآخر . لكننى على رغم هذا لا يزال فى
صدرى بارق أمل بأن أباك سيزوجك منها مادامت على شىء
كثير من الأمانة والصلاح ، برغم ضيق ذات يدها ، وبرغم كل
الذى قاله اليوم من أنه يبعض مصاهرة الفقراء . فانه كثيراً
ما يقول فى حديثه المألوفة عبارات لا ينفذ منها حرفاً . بل
كثيراً ما يقبل الشىء الذى كان يرفضه ويأباه . وكل ما هنالك
أنه يحب أن يقال له كلمة طيبة ، وهو لعمري جدير بهذا
لأنه السيد الوالد ... »

« ونحن جميعاً نعلم أن غضبه هذا ، الذى يشور من بعد
المائدة ، ليس بشىء ذى خطر ، فهو يتكلم بشدة وبعنف . وقد
أثار النبيذ حفيظته . وأهاج كل قواه . فبات لا يحس ولا يسمع

غير صوت نفسه ، ويأبى الانصات إلى ما يقوله سواه . لكن
الآن قد اقترب المساء ، وقد دار بينه وبين صديقيه أحاديث
شتى ؛ ولا تكاد تذهب عنه حدة الخمر حتى يعود أكثر هدوءاً
وحلماً ، ويحس أثر الظلم الذى أنزله بغيره .

« فهل بنا الآن ، ولنحاول أن نعمل الذى نستطيعه ، دون
أن نضيع لحظة ؛ وما ينجح فى الحياة إلا الاقدام والمغامرة .
ونحن فى حاجة إلى مساعدة الصديقين اللذين يحالسانه الآن .
وسيكون لنا القس الكريم خير نصير . »

ثم نهضت الأم واقفة ، وانهضت ابنها من مقعده . فقام
يمشى خلفها طائعاً . وسارا كلاهما صامتين ، ينعمان الفكر فيما
ينويان أن يفعلاه .

....

النشيد الخامس

پوليمنيا POLYHYMNIA

(الرثاء الانشيد الربيعي)

رجل الدنيا ^(١)

كان الأصدقاء الثلاثة : القسيس والصيدلي وصاحب
الفندق ، جلوساً بعدد ، يتجاذبون أطراف الحديث ، الذي لم
يتغير موضوعه ، وإن كانوا قد قلبوه على وجوهه جميعاً .
وأخيراً قال القسيس الكريم الخصال : « لست أبغى معارضتكما
فيما ذكرتما . بل إنني مُقرٌّ بأن الانسان يجب أن يشد
الأحسن : ونحن نراه في الواقع يبتغي الأسمى من الامور ،
أو على الأقل يبتغي الجديد . لكن يجب ألا تغلوا . فان

(١) عنوان هذا النشيد رجل الدنيا : أي الرجل الذي اتخذ الدنيا كلها له وطناً
لا يفرق بين الأقطار والأجناس . ولعل هذا إشارة للقسيس . وهناك مقابلة بين
رجل الدنيا Cosmopolite ، وبين البورجوا ساكن المدينة المذكور في فصل سابق .

الطبيعة قد أضافت الى هذا أن حَبَبَتْ الى الانسان الحرص
على القديم ، والتَّسَنَّمَ بالشئ الذى أَلْفَهُ واعتاده زمناً طويلاً .
وكل حال للبرء طيبة مادامت تستند على أساس من الطبيعة
والعقل ..

« إن الانسان كثيرة رغباته ، لكن حاجاته قليلة ، والعمر
قصير المدى ، وحياة ابن الفناء محدودة . ولست بلام يوماً
ذلك الرجل ، الذى أراه أبداً مُنْدَفِعاً قَلِقاً ، يحوم ويحول ،
ويركب البحار ، ويحوب سائر الأقطار ، فى هياج دائم وحماس .
ثم يفرح ويطرب إذ يرى المال يتراكم حوله وحول ذوى
قرباه . ولكنى أرى واجباً علىّ أيضاً أن أُقَدِّرَ كل التقدير
ذلك الرجل من أهل المدينة ، الذى تلقاه هادئاً ساكناً ،
يتفقد باهتمام الارث الذى آل اليه عن أبيه ، ويعنى بالارض
وبزراعتها فى كل موسم : ليس بالرجل الذى يبدلُ أرضه
ودياره كل عام ، فهو يعلم أن الشجرة التى غرست حديثاً لن
تسرع فتُرسل نحو السماء فروعاً مجللة بالزهر ، وأن لا بد له
من الصبر والأناة ، وكذلك لا بد له من فكر طاهر هادئ
رزين ، ومن فهمٍ للأُمور على حقيقتها ، فهو لا يُلقى فى

الأرض الخصبية إلا القليل من البذور ، ولا يقتنى من الماشية إلا القليل ، الذى يستطيع رعايته والعناية بنتاجه ، فهو يقصر همه على ما يستطيع أن ينهض به .

« وسعيد » ، لعمرى ، ذلك الرجل الذى منحته الطبيعة هذه الدقة فى الخلق ، فان مشله هو الذى يُغذّي لنا جميعاً ، ولننعم ساكن المدينة الصغيرة إذ يجمع بين حرقة أهل المدن وحرقة أهل الريف ! فمشله لا يحس ذلك العبء الذى ينوء بكاهل الفلاح : ولا ترعبه الهموم التى تنغص عيش سكان المدينة ، الكثرى المطامع ، الذين يريدون أبداً — وعلى الأخص نساؤهم وبناتهم — أن يقتدوا بمن هم أكثر مالا وأعلى مرتبة .

« لهذا وجب عليك أن تحمد لفتاك مجهوده الهادى » ،
وأن تبارك الفتاة ، التى سيختارها زوجاً له يوماً ما . »

وحين بلغ القسيس هذا الموضوع من حديثه ، دخلت الأم وابنها ، وقد قبضت على ذراعه ، ووقفت به بين يدي أبيه وقالت : « كم مرة أيها الوالد ، كنا نفكر ، ونحن نتحدث ،

في ذلك اليوم السعيد ، الذي لا بد أن يأتي : يوم يختار هرمن
عروسه فيدخل السرور الى قلبنا جميعاً ! ولقد كنا نتذاكر
هذا الأمر غير مرة ؛ وكنا نشير عليه أحياناً بهذى وأحياناً
بتلك : كدأب الوالدين إذ يتحادثان . والآن اقرب ذلك
اليوم ؛ وسأقت المقادير اليه العروس وأرثها لعينيه . وقد
علّقها قلبه ، واستقر عليها رأيه . ألم ندع له من قبل أن يختار
التي يهواها ويرتاح اليها ؟ والآن دنت الساعة ، فلقد أحب
واختار وصحت عزيمته على بلوغ ما يريد . والتي اختارها هي
تلك الغريبة التي لقيها اليوم ، فأعطه إياها ؛ وإلا فقد أقسم أن
يبقى حياته أعزب . »

وقال الفتى : « أجل ! هبني إياها يا أبتى ! إن قلبي اختار
بصفاء وإيمان ؛ وهي أجدر النساء بأن تكون ابنة لك . »

صمت الوالد ولم ينس بكلمة : فنفض القسيس قائماً وقال
« إن اللحظة السانحة هي وحدها التي تتحكم في حياة الانسان وفي
مصيره ومآله . وكل عزيمة للبرء ، مهما طال فيها تفكيره
وتدبيره ، فانها في النهاية وليدة اللحظة التي يقطع فيها برأى
وسرعان ما يقطع الحكيم بالرأى الصواب . »

« وانه لمن الخطر ، عند الحكم والاختيار ، أن يدخل
المرء في الأمور ما ليس منها . فيحار اللب ، ويضل الفكر .
» ان هرمن قى ثاقب النظر ، وانى لأعرفه منذ الحداثة .
ما كان يوما من طباعه — حتى وهو صبي — أن يمد يده الى هذا
والى ذاك . وما كان يطلب غير الذى يحتاجه ، ثم يحتفظ به
ويحرص عليه .

« فلا تأخذكم الحيرة والدهشة الآن ، لأن الحادث الذى
كنتم ترجونه منذ عهد بعيد قد حدث فجأة ! حقيقة ليس
للحادث ، فى الظاهر ، ذلك الشكل الذى كنتم تتمنونه . لكن
هذه الامانى نفسها كثيرا ما تحجب عنا الشئ الذى تمناه .
وإنما تنزل الهبات علينا من السماء فى ثوبها هى ، وفى شكلها .
فلا تنكروا هذه الفتاة التى تحرك لها ، لأول مرة ، قلب ولدكم
العزیز وهو ذلك الفتى الطاهر العاقل .

« وأسعد بذلك الرجل ، الذى تمد اليه حبيبته الأولى
يدها ، فلا ينقلب حبه شجنا يضيويه ويضنيه . ولعمري إنى لأنظر
إليه الآن ، فأدرك أن حظه قد تقرر . إن الحب الصحيح سرعان
ما يستحيل به الشاب رجلا رشيدا . وانى لألمح فى وجهه العزم

الذى لا ينشئ عما يروم . ولئن أبيت عليه هذا فقد قضيت عليه
بأن يلبث بقية الحياة — وفيها أبهى سنى العمر — رهين الحزن
والسكابة . »

لم يكد القسيس أن ينتهى حتى تكلم الصيدلى، وكان طوال
هذه الفترة يهم بالكلام ، فلا يملك نفسه إلا بجهد وعناء . قال
وهو يمعن فى التفكير: « رويدا ! تعالوا نسلك هذه الكرة أيضا
طريقا وسطا . ولنتعجل مع التريث ! ذاك كان شعار القيصر
أغسطس نفسه . وأنا بودى أن أقوم بخدمة جيرانى الأعزاء ؛
وأن أستخدم فى هذا كل مالدّى من ذكائى قليل وفهمٍ
ضئيل . والشباب ، على الأخص ، فى حاجة إلى من يرشده
ويهديه . فدعونى أنطلق الآن لى أخبر الفتاة . وأسأل
عنها المجتمع الذى يعرفها والذى تعيش فيه . ولست بالذى
يسهل خداعه . وأعرف كيف أنقذ ما يقال لى ، فأطرح
منه الزائف . »

فقال الفتى : « نعم ما تصنع أيها الجار ! فاذهب واستطلع
ما شئت من الأنباء ! وَوَدَدْتُ لو أنك استصحبته معك
مولانا القسيس ، فإن رجلين جليلين مثلكما ، هما من أعدل

الشهود الذين لا يُتَّهَمون . ويا أبقى ماهذه الفتاة من النساء
اللاتى يَجْبُنَ الآفاق فى طلب المغامرات ، لكى توقعن فى
حبائلهن أغرار الشباب ، بالحيل والأكاذيب . كلا بل إن
هذه الحرب الضروس ، التى مزقت العالم كل ممزق ، ودكت
المغانى والمعاقل ، أجل هذه الحرب الشعواء هى التى شرَّدت
هذه المسكينة . ألسنا اليوم نرى رأى العين كرام الرجال
تحت كل شكل البؤس والشقاء ؟ ألسنا نرى الأمراء يلوذون
بالهرب متنكرين ، والملوك يعيشون فى منفاهم طريدين ؟
وكذلك هى ، وهى زين نساء العالمين ، قد أخرجت من ديارها
فتناست ما هى فيه من محنة وبلية . وجعلت تقوم بأود
الآخرين . فباتت قادرةً فى ساعة العجز ، معوَّاةً حين
انقطع كل عون .

لقد عم الأرض حزن هائل ، وشقاء شامل : فهلا نشأ
وسط هذه النِّقَمِ نعمة واحدة ؟ هلاً أُنْصَحَ لى أن أضُمَّ
عروسى ، وهى تلك المرأة الأمانةُ ، إلى صدرى ، فيكون
لى وسط هذه الحرب سرورٌ ونعيم ، كما كان لكما من قبل
وسط الحريق الهائل ؟ »

هنالك لم يتمالك الوالد أن فتح فاه وقال : « لست شعرى ،
كيف انحلت عقدة لسانك أيها الفتى ، بعد أن كان قابعاً في فمك
طوال هذه السنين ، لا يتحرك إلا بجهد وعناء ؟ فهل كُتِبَ
لى أن أقاسى اليومَ ذلك الخطب الأليم الذى يتهدد الآباء
طُرّاً : إذ تميل الأمُ ميلاً لا ينهاها ، وتنصره وتوازره فى
رغبته الملحّة وارادته العنيفة : ثم ينحاز اليهما الجار بعد
الجار : وقد تحالفوا جميعاً على الوالد .

وأرأى أمسيت عاجزاً عن مقاومتكم جميعاً ، وماذا
تجدى المقاومة . فاقبلى أرى مُنْذُ الساعة ، روح العناد
والدموع والبكاء .

فاذهبا إذن واستطلعا الأنباء ! فان كانت تلك إرادة الله ،
فأحضرا الفتاة الى الدار ، وإلا فما على الفتى إلا التذرّع
بالنسيان والسُّلوان . »

فصاح الفتى فرحاً طروباً : « قبل غروب شمس هذا اليوم
ستكون ابنتك بين يديك : أجل وسُئِنعم عليك بفتاة هى
أجل النساء ، وخير ما يمتنى المرء حزماً وعقلاً . وإنى لأرجو
أنها هى أيضاً ستنعم بهذا وتسعد : بل وستشكر لى مدى

الدهر أن قد وجدت فيكما أباً وأماً يتمنى مثلهما أحسن
الآبناء وأعقلهم .

« ولن أضيع الآن لحظة أخرى ، بل أبادر فأعدّ المركبة
والجوادين ، ثم أحمل الصديقين الى موضع الحبيبة : واطرهما
هناك وحدهما . ليدبرا الأمر بما أوتيا من عقل وحكمة .
وإني أعدكم ، بل أقسم لكم ، أن أنزل بعد هذا على حكمهما .
وسأمتنع عن مقابلة الفتاة حتى تصبح لي خطباً . »

قال هذا وخرج عَجَلاً . وجعل الآخرون يجمعون
أمرهم ، ويتدبرون الطريق التي يسلكونها في معالجة ذلك
الأمر الخطير .



ولم يضع هرمن لحظة : بل انطلق الى الأصطبل ، حيث
رأى الجوادين ، واقفين هادئين ، وهما يلتهمان أحسن الشعير
والدريس التهاماً : فألبس كلا منهما الشكيمة بين الفكّين ثم
أمر اللجم من الحلقات : وأحكم وضع السيور الطويلة
العريضة : واقتاد الجوادين إلى فناء الدار ، حيث هيا الخادم
المركبة وأعدّها : فدفع الجوادين برفق إلى عريش المركبة ،

وربطهما بأحكام إلى عَمَدِها . وتبوأ مقعد السائق والسوط
في يده . وسار بالمركبة إلى باب الدار ؛ ولم يكد الصديقان
أن يجلسا في مقعدهما الرحيب ، حتى انطلقت تعدو بهم . ولم
تلك إلا لحظة حتى غادرت الطرق المرصوفة ، وزايلت المدينة
بأسوارها وأبراجها . وقد أخذ هرمن يسوقها تلقاء ذلك
الجسر المعهود ، وهو يركض بها ركضاً ، دون رَيْثٍ ولا
مَهْلٍ ، سواءً كان يجري صاعداً أم منحدرأ .
ولم يلبث أن لاح له برج القرية ؛ ومن ورائه دورها
المتفرقة تحيط بها الحدائق . عند ذلك أخذ يخفف من غلواء
الخيل ، ويهدئ من سرعتها .



وكان أمام القرية مرج يكسوه بساط من العشب الندي .
تظله شجرات من الزيزفون ، شاخحة جليلة نبتت في مواضعها
هذه منذ زمن بعيد ؛ فثبت أصلها في الثرى . وامتدت إلى السماء
فروعها . وكان هذا المرج ملعباً وملهى لأهل القرية ولما
جاورها من البلاد . وكان في وسطه بئر قد حفرت بين الدوح
في أرض منخفضة مطمئة ؛ تنزل إليها بدرج فتلقى مقاعد من

الحجر مصفوفة حول ينبوع يتدفق منه الماء أبدا ، رائها صافيا .
وقد أحيط بسور صغير ، بحيث يسهل الاستقاء من الحوض .
استقر رأى هرمن على أن يريح الجوادين في ظل هذا
الدوح . ففعل ، وقال لصاحبيه : « انزلا الآن أيها الصديقان ،
واذهبا كي تعلما أن هذه الفتاة جديرة باليد التي أمد إليها . أما
أنا فما يداخلي في هذا ريب . ولن تنبتأي عنها بجديد . ولو كان
الأمركه بيدي لا نطلقت الى القرية ، وطلبت منها ان تتم
سعادتي بكليات قلائل تفوه بها .

« أما أتما فلن تجدا صعوبة في معرفتها من بين هذه الجماهير .
فمن الصعب أن يكون لغيرها ذلك القوام العالى . ومع هذا
فأنى واصف لكما من ثيابها النقية ما قد يرشدكما إليها : لقد
لبست قرطقا أحمر ، قد نجم من تحته ثدياها . وأحاطت
خصرها بنطاق اسود قد أحكمت شدة وجعلت فى لبة القميص
ثنايا وطيات تحيط بجيدها المستدير كاطار بديع . وفى وجهها
البيضاوى تلحان الصراحة والهدوء . وشعرها مضافور
ذوائب عديدة على اسلاك من الفضة . ومن تحت النطاق
يتدل مرطها الأزرق ، ذو الثنايا العديدة ويكاد يمس منها حين

تمشى عقيها المليحين .

« لكن هنالك أمر أريد أن أسألكما إياه وألح عليكما في أن تجيباني إليه : وهو ألا تخاطبا الفتاة ، ولا تدعاها تفهم ما تقصدان إليه . بل اكتفيا بسؤال الآخرين ، وأنصتا للذي يقولون . ومتى اجتمع لديكما من الانباء ما يهدى روع الأب والأم فارجعا إلى ، لتتدبر ما نصنع بعد ذلك .

هذا هو الرأى الذى ارتأيت ونحن سائرون الى هنا . »
بعد أن ختم هرمن كلامه ، انطلق الصديقان الى القرية ، فاذا جماهير الناس قد احتشدت فى الحدائق والدور . وفى مخازن الغلال ، ولهم عجيج وضجيج ، وقد اكتظت الطرق بالمرربات بحيث تلاصق العجلة العجلة . فمن رجال تطعم الماشية وهى تخور ، والخيول وهى مربوطة الى المراكبات . ومن نساء منهمكات فى تجفيف ما غسلن من الثياب على سياج المنازل أو على الاسوار أو فى أى مكان . الى أطفال يلعبون باللعب فى مياه الجداول .

شق الصديقان فى جهد طريقا وسط هذه المراكبات . وجعلا ينظران يميناً ويساراً نظرات المستكشف المستطلع . لعل عيونهما

أن تقع على الفتاة التي وصفت لها . فلم يجدا لها شيئا بين من ألفيا
من النساء . ولم يلبثا أن بلغا الى موضع اشتد به الزحام ، وقد
اجتمع حول المركبات رجال يختصمون ، من حولهم نساء يصحن
ويُعولن . واقبل شيخ وقور مسرعا . واقرب من المتخاصمين
فلم يكذب ويشير اليهم إشارة الأمر حتى هدأت الضوضاء
وساد السكون . فصاح فيهم : « أما كفانا ما حل بنا من الشقاء حتى
صرنا عاجزين عن ان نتفاهم فيما بيننا ، وان نتسامح ، ونغض
الطرف عما قد يرتكبه بعضنا من هفوات ؟ لقد يكون احدكم
وسط السعادة ، ضجرا متبرما ، سريع الغضب ، لكن ألم
يعلمكم وقع النوائب أن تكفوا عن النزاع والخصام ؟ أولى
لكم هنا . ونحن في ديار الغربة ، أن يسع الواحد منكم أخاه ،
وأن تتقاسموا ما بأيديكم من رزق حتى تكونوا موضع العطف
والرعاية . »

فاه الشيخ بهذه الكلمات ، وقد انصت الجميع اليه . ثم
أخذوا في اصلاح مركباتهم ودوابهم : وقد لانت عريكاتهم ،
وهذا ثأرهم .

وسمع القسيس كلام الشيخ : فتبين في وجهه ملامح القاضي

العاقل الرزين، فتقدم اليه وخاطبه في جدقاته: «ان الشعب في زمن
الرخاء يعيش خلى البال. يتغذى مما تنتج أرض سخية واسعة. تخرج
له الهبات الشبيهة على مدى الشهور والسنين. هنالك يجري
كل شئ وفق المرام، فيحس كل امرئ في نفسه أنه فوق سائر
الناس فضلاً وعقلاً. وما دامت الأمور تجري في مجراها
فان أحزم الناس وأذكاهم لا يلقى من التقدير أكثر مما يلقى سواه.
» ولكن اذا نزل الشقاء، فاضطربت لوقعه سبل الحياة.
وخرّبت المنازل والدور، وهلكت الحقائق والزروع. وسبق
الرجال والنساء من مسكنهم الآمين، وقذف بهم إلى العراء،
يختلف عليهم نهارٌ قاسٍ وليلٌ مخيف. فهناك ينظر الناس من
حوطهم ليهتوا عن أوفرهم عقلاً، وأعلاهم رأياً. الذي
يستطيع أن يكلمهم، فلا تذهب كلماته أدراج الرياح.

« قل لى يا والدى ! إنك من غير شك القاضى الذى يحكم
بين هؤلاء الشرّيين، ولهذا استطعت أن تهدئهم من غير
عناء ! أجل وإنى أراك شبيهاً بأولئك القادة، فى العصور
القديمة، الذين كانوا يقودون رعاياهم الطريفة وسط الصحارى

والقفار (١) ، وكأني الآن إنما أخطب يوشع أو موسى .
فأجاب القاضى وهو يلقي عليه نظرات حادة جادّة :
« حقاً إن زماننا هذا ليشبه أعرب العصور التى حدثنا عنها
التاريخ ؛ سواء أكان تاريخ دين أم تاريخ دنيا . وإن الذى
عاش من الأمس الى اليوم فكأنما عاش عدة سنين ، لكثرة
ما تعاقب من الحادثات فى هذه الفترة القصيرة . أما اذا حاولتُ
أن أذكر ما قبل ذاك بزمان قصير ؛ فانى يُخيل لى أنى بت
أحمل على كاهلى عبئاً ثقيلاً من السنين . وأعجب أن لم تزل فى
بقية من القوة .

« أجل إننا نستطيع حقاً أن نقارن بين أنفسنا وبين ذلك
الشعب (٢) ، الذى لاحت له النار المقدسة فى ساعة المحنة .
فكذلك نحن قد شاهدنا الروح القدس وسط السحاب
والنيران . »

وكان القسيس يود أن بمضى فى حديثه مع القاضى ،

(١) أى مثل موسى عليه السلام حين قاد جموع بنى اسرائيل فى الصحراء ما بين
مصر وفلسطين .

(٢) شعب بنى اسرائيل

ليستطلع أنباءه وأنباء قومه . فقال له رفيقه همساً : « امض
في حديثك مع القاضي ، وسق إليه حديث الفتاة ؛ أما أنا
فسأطوف بالمكان قليلا ، باحثاً عنها ؛ ثم أعود اليك بعد أن
أراها . » فأشار القسيس موافقاً : وانطلق الآخرين الأسوار
والحدائق ، مستطلعاً باحثاً .

....

النشيد السادس

كليو^(١) KLIO

(الهة التاريخ)

العصر

أخذ القسيس يسأل ذلك القاضي ، الغريب الدار ، عما
قاسته الجماعة ، وعن الزمن الذي قضته في هذا التشرّد : فأجابه
الآخر : « إن آلامنا ليست بالشئ الحديث العهد ، فقد شربنا
صاب هذه السنين جميعاً ، وكان أشد المصائب وقعاً علينا أن
رأينا أبهى آمالنا وأحلاها تهدم وتتحطم . ومن ذا الذي
يستطيع أن ينكر أن نفسه أخذت تسمو وتعلو ، وأن صدره
الحر أخذ يخفق خفقاناً أشد طهرًا وصفاء . حينما أشرقت

(١) في هذا الفصل اشارات الى حوادث الثورة الفرنسية والى ما بعثت من الآمال
في النفوس وما خيبت من الرجاء . ولهذا فان اسم كليو إلهة التاريخ ملائم لهذا الفصل
كل الملازمة .

علينا الشمس الجديدة بأشعة براءة تسطع وتلمع ، وحينما
استهوى مسامعنا الكلام عن حقوق الانسان ، التي هي ملك
للناس جميعاً ، وعن الحرية التي تعلى النفس ، وعن مبدأ
المساواة المجيد .

« هناك غدا كل يؤمل أن سيحيى حياته لنفسه (١) وكأنا
تلك السلاسل والأغلال ، التي قيدت بها الأنانية والكسل (٢)
الكثير من الأمم ، قد تسكست أخيراً . . ألم تكن أنظار
الشعوب جميعاً متجهة في تلك الأيام المفعمة بالحوادث الى
عاصمة العالم (٣) ، التي استحققت هذا اللقب العظيم في ذلك
الوقت أكثر مما استحقته في أى عصر آخر ؟ ألم تكن أسماء
أولئك الرجال ، الذين كانوا أول من أذاعوا الرسالة ونشروها (٤)
تضارع أسماء أجل الناس قدراً ، ممن غدا لهم مكان بين
النجوم الزاهرة ؟ ثم ألم يكن أثر هذا كله أن بات كل انسان
يحس أن قد ارتقى : قلباً وروحاً ولساناً ؟

(١) يحيا من أجل نفسه لا من أجل الملوك والقسس والنبلاء .

(٢) الأنانية والكسل رمز للطبقات الحاكمة التي تسخر الشعب لخدمتها .

(٣) يريد باريس

(٤) أمثال ميرابو ولافايت .

ونحن الجيرة الاقربون (١) كنا أول من اشتعلت نار
 الحماس في نفوسهم . . . من بعد هذا دارت رحا القتال ،
 وجعلت كتائب الفرنسيين تزحف على ديارنا . ولكن كان
 يبدو لنا أنهم مقبلون علينا كأصدقاء . وهكذا ألفيناهم . فلقد
 كانوا جميعا ذوى نفوس عالية . فجعلوا يغرسون بيننا بهمة
 وعزيمة أشجار الحرية الياضعة . وأعلنوا أن كلاً له حقوقه المرعية
 وحكومته التي يرضى ويختار . وقد طرب الجميع سرورا ، شبانا
 وكهولا . وجعلت حلقات الرقص تدور من حول الأعلام
 الجديدة . . وهكذا تمَّ لهؤلاء الفرنسيين اللبقيين اكتساب
 قلوب الرجال بهمتهم وعزمتهم ، وقلوب النساء برشاقتهن التي
 لا تقاوم ، حتى لقد سهل علينا عبء الحرب على فداخته ، لأن
 الأمل كان يسدل دون المستقبل ستورا . فلا تقع أبصارنا الا
 على السبل الجديدة التي بين أيدينا .

» لقد تعلم أن الزمن الذي يقضيه العروس وخطبه ،
 يغشيان المراقص والملاعب ، وهما بانتظار يوم العرس ، من
 أسعد الازمنة وأرغدها ؛ لكن كان أسعد منه ألف مرة ذلك

(١) سكان الاقاليم الالمانية الملاصقة لفرنسا الواقعة غرب نهر الرين .

الزمن ، الذي كان المرء يرى فيه أن أقصى ما كان يطمح إليه
بصره ، بات قريب المنال جدا . فهناك انحلت عقده الألسنة ،
وأطلق الشيوخ والشبان للقول العنان ، معبرين عن كل فكر
سام وإحساس كريم (١) .

« لكن لم تلبث السماء أن غشيتها السحب ، ونهض جنس
فاسد ليقبض على زمام الحكم (٢) ، وهو عاجز عن أن يفعل
الخير ، فأخذ أفرادهم يذبح بعضهم بعضا ، ويستبدون
بجيرانهم وإخوانهم . وبعثوا إلينا شر ذمة من الأنانيين الجشعين .
فأكب كبراؤهم على سلبنا كل شيء يستحق السلب ، وأكب
صغراؤهم على النهب ، فلم يدعوا حقيرا أو تافها الا استولوا
عليه . وما كان خوفهم إلا أن يسرفوا فلا يتركوا شيئا إلى الغد .
» فلم يمض زمن طويل حتى حل بالناس الشقاء ، وفي كل
يوم يشتد بنا الظلم ويزداد . وكانوا في عنفوان عزهم ونصرهم ،
فلم نجد من ينصت إلى استغاثاتنا . فاستولى الغيظ والغضب

(١) إشارة إلى الذين تغنوا بمدح الثورة الفرنسية في أول عهدهما من شعراء

الألمان أمثال كلوبستك Klopstock

(٢) إشارة إلى جماعة البعاقية

حتى على أعذب الناس روحا . واقسم الكل ليشَارَنَّ لما نزل
بالبلاد من العار ، ولتلك الآمال التي خابت خيبةً مضاعفة .
وكان الجدُّ حايِف الألمان . فعاد الفرنسيون وارتدوا متقهقرين .
عند ذلك جعلنا ندرك حقيقة أهوال الحروب . فإن الجيش
الظافر المنتصر قد يبدي شيئا من الكرم والمجاملة ، أو على
الأقل ، يتظاهر بذلك . فلا يريد أن يبطش بالذين ظفر بهم ؛
بل يفضل أن يُبقى عليهم . وأن يستخدمهم كل يوم فينتفع
بهم وبما ملكت أيديهم . أما المهزوم الهارب فلا يعرف شرعا
ولا عرفاً ، أقصى بغيته أن ينجو من الموت ، فهو يلتهم كل
ما يقع في يديه من غير تدبُّر ولا تبصُّر . وتطيش أحلامه
ويدفعه اليأس الى ارتكاب كل اثم ، فلا يرى لشيء قدسا
ولا حرمة . بل يسلب كل ما يقع تحت بصره . وتدفعه الشهوة
الوحشية لأن ينقض على النساء ، فتقلب لذاته فظاعة وإجراما
ويبضر الموت ماثلا أمامه في كل مكان ، فيعيش لحظاته
الأخيرة عيشة الوحوش الضارية . يسره أن يرى الدماء وأن
يسمع أنين المعذنين .

« هنالك جاشت برجالنا مراجل الغضب ، وأرادوا أن

يثأروا لما فقدوه وأن يدافعوا عما بقي. فحمل الجميع أسلحتهم. وقد ازدادت شجاعتهم لما رأوه من سرعة فرار الهاربين ، ومن وجوههم الشاحبة ، ونظراتهم الفزعة ، فجعل ناقوس الحرب يدق دقات متصلة لا تنقطع . ولم يهدئ من ثورة غضبهم خوف الأخطار التي هم مقبلون عليها . ففي لمحة الطرف انقلبت آلات الزراعة إلى أداة حرب ، فاذا الأمشاط والمناجل تقطر نجيعا ، واذا الأعداء تتساقط أشلاؤهم بلا رافة ولا رحمة . فأما الشجعان فكانوا يفتكون بهم جهاراً ؛ وأما الجبناء فيقتلون غيلة وخلسة . إن لأرجو ألا أرى بنى الانسان في مثل تلك الحال من الفوضى والانهطاط مرة أخرى : ولمنظرُ الوحش الضارى خير من منظرهم .

« فعلام إذن كل هذا الكلام عن الحرية كأنما الناس قادرون حقا أن يحكموا أنفسهم ؟ انهم لا يكادون أن يُرخى لهم العنان ، وتزول من أمامهم العقبات . حتى تظهر فيهم الغرائز الدينية ، ويختفى العدل والانصاف في الزوايا والأركان . » فقال القسيس : « أيها الرجل الجليل ! لست بلأملك على إنكارك لبنى الانسان ، بعد الذى عانيته من شرورهم ، وما

ارتكبه من تدمير وتخريب . على أنك لو ألقيت نظرة أخرى
على تلك الأيام الحزينة ، فانك واجد فيها من غير شك كثيرا
من صالح الأمور ؛ وكثيرا من جليل المشاعر : التي كانت
كامنة في أعماق القلوب حتى أثارها وقع الخطوب . فاذا الشقاء
الداهم والخطر المحقق يظهران الانسان في صورة الملك ،
وإذا هو لآخرين بمثابة إله يرعاهم ويحميهم . »

فتبسم الشيخ القاضي ضاحكا وقال : انك تذكرني تذكر
الحكيم العاقل : كما يذكرون صاحب دار اشتعلت بها النيران
فدمرتها ، فيذكرونه بما فيها من الذهب والفضة ، مما قد أذابه
النار ، ولبت مبعثرا بين أنقاض الدار . وفي الحق إنه لنزراً
يسير ، لكنه على قلبه ثمين . فيحضر المسكين باحثا عنه ، ويفرح
لما قد يجده منه . وأنا كذلك أرجع بأفكاري مسرورا الى
تلك الأعمال الطيبة القليلة ، التي لم تزل تعيها الذاكرة .

« أجل لست بمسكراً في شاهدة الذين بينهم عداوة ينسون
عداوتهم ، كي يتعاونوا على انقاذ المدينة من براثن الشقاء .
ورأيت كيف تنهض الصداقة وحب الأبناء والآباء فتأتي بما
قد يعد ضربا من المحال . وأبصرت كيف ينقلب الشباب

رجلا في لمحة الطرف ، والشيخ اليَقَن يحول قتي يافعا .
بل ورأيت الطفل يعود شابا ، وذلك الجنس . الذي أَلْفا أن
نفعته بالضعف ، قد راح يبدى من البسالة والبأس ما يشير
الاعجاب .

«ولأقص عليك أولا ذلك العمل الجميل ، الذي قامت به
فتاة كريمة من خيرة العذارى : تخلفت هذه الفتاة في مزرعة
كبيرة ومعها كثير من الفتيات . وقد ذهب الرجال جميعا
لحاربة الأعداء . وبينما هن كذلك أغارت على المزرعة
شرذمة من أراذل الناس . فنهبوا المزرعة ثم دخلوا على
النساء الدار . فرأوا تلك الحسناء وقوامها المعتدل ، والفتيات
الأخريات ، وهن أحق بأن يُدْعَيْن طفلات . فتملكتهن
الشهوة الوحشية . واندفعوا يريدون مهاجمة الصغيرات
وهن يرتعدن فرقا . والغادة الباسلة . لكنها لم تلبث أن انتزعت
من جانب أحدهم سيفا وأجهزت عليه بضربة عنيفة فخر
تحت قدميها مضرجا بدمائه . . ثم لم تزل تضربهم ضربات
الرجل القوي حتى كفت أخواتها شرهم ؛ ولأذ اللصوص
بالهرب . بعد أن جرحت منهم أربعة . بعد ذلك أغلقت الدار ،

وبقيت والسلاح في يدها تنتظر المدد . »

حين سمع القسيس هذا الأطراء لتلك الفتاة ، داخل قلبه
الأمل من أجل صديقه . وهم بالسؤال عن مصيرها ، وعملاً
إذا كانت وسط هذا الجمع الغفير من اللاجئين . لكن في تلك
اللحظة دخل الصيدلي مسرعاً ، وجذب القسيس من رداءه
وقال له همساً : « قد عرفت الفتاة بعد لآي ، من بين
مئات من النساء . وهي كما وصفت لنا تماماً . فتعال معي كي
تراها رأي العين . وليصحبنا هذا القاضي لنستطلع منه بقية
أخبارها . » والتفتا فإذا القاضي قد استدعاه قومه ليستفتوه
في شؤونهم ويهتدوا بهديه .

وبرغم هذا سار القسيس وراء الصيدلي حتى بلغا إلى فجوة
في السياج ، فقال هذا وهو يشير بيده : « أنظر هاهي الفتاة !
سرعان ما عرفت كيف تلف المولود لفأً محكماً . وأنا أذكر
تماماً القطن القديم . وغطاء الوسادة الأزرق . وهذا كله
نما كان في حقيبة هرمن ، وقد أحسنت إذ أحكمت تحويل
تلك الهدايا بسرعة إلى حالتها الجديدة . وهذه دلائل على
الفتاة لا تقبل الشك . والصفات الأخرى واضحة أيضاً كل

الوضوح . فهناك القرطوق الأحمر ، يستر صدرأقد نجم ، وهاك
النطاق الأسود قد أحكمت عقده حول خصرها . وقد جعلت
في لبة القميص ثنايا وطيات بديعة تحيط بجيدها المستدير
كأطار جميل . وفي وجهها اليبضاوى تلح الصراحة والهدوء
وشعرها مضافور صفائر عديدة على أسلاك من الفضة . وبرغم
أنها جالسة فاننا نستطيع أن تبين قدها الممشوق ، وهو ذامرطها
الأزرق ، ذو الثنايا العديدة ، يلفها من خصرها الى عقيها
المستديرين .

هذه هي من غير شك ، فتعال نستفسر عنها لنعلم هل هي
ذات فضل وفضيلة وهل تحسن إدارة المنزل . »

فجعل القسيس يحتبر الفتاة بشاقب نظره . ثم قال :
« لعمري ليس بعجيب أن قد خلبت الفتى وسحرته . فان عين
الناقد الخبير لاتقع منها إلا على كل ما يعجب : سعيد من منحتة
الطبيعة الجمال الكامل . فبات محبوباً حيثما نزل ، ولن يكون
غريباً ، مهما نبّت به الدار . إذ يود الكل أن يقترب منه ،
وأن يلبث بقربه زمناً طويلاً . ولئن صاحب جمال الخلق
هذا حسن الخلق ، فاني أوكد لك أن فتانا ههنا قد أصاب

عروساً ستملاً أيام حياته سعادةً ونعيمًا . وستقف مخلصه
وفية الى جانبه في كل حين . وأكبر ظنى أن هذا الجسم
الكامل لا ينطوى إلا على روح طاهرة . وهذا الشباب
القوى سيفضى على مدى السنين إلى شيخوخة سعيدة .

فأجاب الصيدلى وهو يمعن في التفكير : « رغم هذا ،
كثيراً ما يخدع المظهر . وأنا لا أريد أن أثق بما قد يبدو للعين .
وكثيراً ما جربت صحة المثل القائل : « لا تركز الى صديقك
الجديد كل الركون قبل أن تعلق وإياه صاعاً من الملح (١) .
فالزمن وحده كفيل أن يريك مبلغ صداقته ، ومنزلتك
عنده . دعنا إذن نستطلع أمرها من أناس صالحين يعرفونها ،
ويستطيعون أن يقصوا علينا من سيرتها شيئاً . »

فقال القسيس : « وأنا أيضاً أفضل سلوكك طريق الحذر ،
فنحن لا نخطب الفتاة لنفسنا ، واختيار فتاة من أجل صديق
أمر يتطلب التروى . »

ثم انطلقا نحو القاضى الهام ، وكان يسير لتلقاهم ،
منشغلاً بما لديه من الأعمال . فأقبل عليه القسيس العاقل ،

(١) كناية عن تجربته في الشدة .

وتسكلم اليه محترساً ، فقال : « إنارأينا فى الحديقة المجاورة فتاة جالسة تحت شجرة تفاح ، تصنع لطفل رضيع ثياباً من قطعة قطن قديمة لعلها أهديت اليها . وقد أعجبنا قوامها المعتدل وما يبدو عليها من الجرأة والبسالة ؟ فحدثنا بما تعلمه عنها . وما سألناك إلا عن نية طيبة . »

فتقدم القاضى قليلا لينظر الى الحديقة ثم قال : « إني عرفتك أمر هذه الفتاة من قبل ، حين قصصت عليك ذلك العمل المجيد الذى قامت به هذه العذراء بعينها . حين استلت السيف ودافعت عن نفسها وعن صواحبها . أجل هذه هى . لا تكاد تلقى عليها نظرة حتى ترى ما وهبتها الطبيعة من قوة . وهى على قوة جسمها طيبة القلب . فقد كانت تعول شيخا هرما من أقاربها ، فلم تزل تعنى بأمره حتى تخرمته المنون وقد أودى به حزنه على المدينة ، وما نزل بها من البلاء وما يتهدد ثروته من الأخطار .

« وكذلك قابلت بهدوء وجلد كارثة أخرى نزلت بها إذ فقدت خطيبها وهو قى ذو إباء وشمم . أشتعلت فى نفسه نار الحماسة من أجل المبادئ السامية الأولى ، وأراد أن يجاهد

بنفسه فى سبيل الحرية . فذهب الى باريس . ولم يلبث هناك
طويلا حتى قتل قتلة شنيعة . وهو يقاوم الاستبداد
والدسائس كما كان يفعل فى بلده . »

فلما أتم القاضى حديثه شكره الصديقان ، واستأذناه فى
الانصراف ، وأخرج رجل الدين قطعة من الذهب (وقد انفق
منذ سويعات كل ما بالكيس من قطع الفضة ، اذ كان يعطى
جماهير اللاجئين كلما مروا به) وقدمها الى القاضى وقال :
« تفضل بتقسيم هذا الشئ الزهيد بين المحتاجين ، وبارك الله
فى هذه الهبة ! » .

فأبى القاضى أن يأخذها منه وقال : « لقد استطعنا أن
تنجو بشئ من النقود وبكثير من الثياب والأمتعة ، وانى لآمل
أن نرجع الى أوطاننا ، قبل أن ينفد ما بأيدينا . »

لكن القسيس أجابه وهو يضع القطعة فى يده : « أجدر
بكل انسان فى هذا الزمن ألا يحجم عن العطاء ، وأجدر بكل
ألا يرد ما يُقدَّمُ اليه عن سماحة . فما يدرى أحد فى يده اليوم
شئ ، الى متى يبقى الذى بيده . وما يدرى أحد اليوم كم يطول
به السير والطواف فى ديار الغرب ، مقصّى عن المزارع

والحدائق التي كانت تؤويه وتغذيه . »

وقال الصيدلى ، وكأنما أهمّة الأمر : « أجل لعمري
ولو كان فى جيبى نقود لمنحتك إياها : كبيرة وصغيرة : إذلا شك
عندى أن فى عشيرتك من هم فى حاجة إليها . ومع هذا فانى
لن أتركك تمضى من غير هبة أهبك إياها ، حتى ترى نيتى الطيبة ،
ولو أن الصنيع دون النية بكثير . »

ثم أخرج من جيبه كيسا من الجلد المطرز كان يحفظ
فيه مالديه من التبغ ، وجعل يفتحه بتدقيق وتمهل . فإذا فيه
مايكفى لماء (بيبات) قلائل . فقدمه الى القاضى وهو يقول :
« إن الهبة لعمري قليلة . » فرد الآخر بأن المسافر يرحب أبدا
بما يقدم اليه من جيد التبغ .

فأخذ الصيدلى يمدح تبغه ويشنى عليه . لكن القسيس لم يدعه
يطيل ، بل اجتذبه وابتعدا عن القاضى . وقال له : « أسرع
بنا فان الفتى ينتظرنا فى قلق . ويجب أن نسمعه النبأ السار
بأسرع ما يمكن . »

فانطلقا مسرعين حتى اذا كانا على مقربة من الشاب ، ألفياه
متكئا على مركبته تحت شجرة زيزفون ، وقد جعلت الخيل

تضرب العشب بسنا بكها . وهو ممسك بلجمها وممعن في التفكير .
وكان ينظر أمامه بعيداً ، فلم يحس قدوم الصديقين ، حتى نادياه
حين اقتربا ، وأشارا إليه اشارات سارة . وكان الصيدلى قد
شرع يخاطبه من بعيد . ولكنهما لم يلبثا أن وصلا إليه . وعند
ذلك أمسك القسيس بيد الفتى وسبق زميله الى الكلام فقال :
« سعد جدك أيها الفتى ! إن عينك الطاهرة وقلبك الخالص
قد أحسنا الاختيار . فلتسعد ولتسعد بك حليمة شبابك . وهى
لعمري جديرة بك حقاً . فتعال اذن وأعد المركبة ، ولنعد الى
القرية راكبين ، وهنالك فلنخطبها ثم نذهب بها الى الدار . »
كان الفتى منصتاً الى كلمات الرسول ، وبرغم أنها عبارات
سماوية مقدسة وباعثة للأمل ، لم تبد على وجهه علامات
السرور ، بل تنهد من أعماق صدره وقال : « لقد أتينا الى
هنا على عجل ، ولكنى أخشى أن سنركب الى دارنا فى شئ
من الفشل ، فزرج متباطئين . لقد أخذت الهموم تملأ قلبى
وأنا انتظر كماها هنا . وأخذ يستحوذ على اليأس والقلق وكل ما يضى
أفئدة المحبين . فهل تحسبان أن مجرد ذهابنا الى هناك كافٍ لأن
تقبل الفتاة علينا وتتبعنا ، لأننا نحن ذوو يسار ، أماهى فتعانى الفاقة

والتشرد . لكن الفقر نفسه - ان أصاب غير أهله - يبعث
في النفس الشمم والكبرياء . وهذه الفتاة جمة النشاط . وقد
تدرعت بالثقافة . وبهذين السلاحين يصبح العالم في قبضة يدها .
ثم أتخسبان أن يكون لامرأة مثل هذا الجمال والكمال :
فلا يفتن بها الشباب ويهيم بها ؟ أتظنان أنها أغلقت قلبها حتى
الساعة . فلم ينفذ اليه حبٌ بعد ؟ أولى لنا إذن ألا نركب الى
هناك . بل نعود ساحيين ثياب الخجل . را كيين على مهل الى
الدار . فاني لأخشى أن بعض الفتيان قد استحوذ على قلبها
ويدها . وأنها أقسمت له يمين الاخلاص . فأى اضطراب
سيعروني اذا وقفت بين يديها في مثل تلك الحال ؟ »

هم القسيس أن ينطق بكلمات يسليه بها ، لكن الصيدلي
بثرثرته المعهودة سبقه الى الكلام فقال : « في الأيام الخالية
لم يكن هذا الشيء مما يحيرنا . اذ كان لكل أمر ذي خطر نظامه
وطريقته . فبعد أن ينتقى الوالدان عروسا لفتاهما ، يرسلان
سرا في طلب أحد أصدقاء الأسرة . ويبعثان به الى والدي
العروس ليقوم بأمر الخطبة . فيادر هذا الصديق ، وقد أخذ
زينته كاملة في يوم الأحد ، و ينتظر الى ما بعد الغداء بقليل ،

ثم يزور ذلك الرجل الجليل في داره . وهناك يتحدث إليه
بعبارات ودية عامة ، وهو يعلم كيف يحوّل مجرى الحديث
متى شاء ، فبعد كثير من اللف والدوران يجيء ذكر الفتاة
فيثنى عليها ، ثم يثنى على الأب . وعلى الأسرة التي أرسلته
اليوم . ثم تبدر منه كلمة حكيمة تشير الى الموضوع : ويلمح السفير
العاقل ماهناك من حسن نية فيأخذ في الشرح والايضاح .
واذا افترضنا أنه لم يلق نجاحاً ولا توفيقاً ، فلن يكون في هذا
غضاضة . أما اذا تكلل مسعاه بالفوز ، فسيصبح لهذا الوسيط
المكان الأول في كل حفلة للأسرة ، لأن العروسين يذكران
مدى العمر أن أول من عقد الرباط هو تلك اليد الماهرة :
يد الوسيط .

« أما الآن فان هذا أصبح كسائر العادات الصالحة ، يعد
خارجاً عن المألوف . وأصبح كلٌ وسيط نفسه ، فاذا رفضته
العروس ، فليتناول فشله بيده ، وليقف موقف المضطرب
الحائر أمام الفتاة . »

فقال الفتي ، ولم يسمع من كلام الصيدلى الا القليل : بل
كان يفكر حتى استقر رأيه على قرار حاسم : « مهما يكن

من أمر ، فاني ذاهب بنفسى لأعلم من فم الفتاة مصيبي
وما لى . فان لى بهائقة قلبا وضع مثلها رجل فى امرأة . وأنا
أعلم علم اليقين أن كل ما تقوله حسن وحكيم . ولئن قدر لى
أن سيكون هذا اللقاء الأخير ، فاني أود رغم هذا أن أقابل
مرة أخرى تلك النظرات الصريحة من تلك العيون السوداء ؛
واذا لم يتّح لى أن أضمرها الى قلبى ، فلا أقل من أن أشاهد
مرة أخرى ذلك الصدر وتلك الأعطاف ، التى يشتهى ذراعى
تطويقها ، أجل أريد أن أرى مرة أخرى ذلك الفم ، الذى
تسعدنى منه القبلية وكلمة (نعم) مدى الحياة . والذى تشقىنى
منه كلمة (لا) مدى الحياة .

« فدعانى إذن وحدى ! وما من داع إلى انتظارى .
بل أرجع الساعة الى الوالد والوالدة ، كي يعلما منكما أن
ابنهما لم يخطئ . وأن الفتاة جديرة بكل خير . فتركاني وحدى
وسأعود مختصرا الطريق ، سالكا ذلك الممشى المنبسط
فوق الكشيب إلى شجرة الكمثرى ، ثم أمر من وسط الكرمة
حتى أصل الى دارنا .

« فهل يتاح لى أن أرجع مسرعا ومعى الحبيبة؟ أم أعود

فريدا وحيدا أجْرُ رجُلَيَّ جرا في تلك الطريق ، ثم أدخل
الدار التي لن أدخلها منشرح الصدر أبدا ؟ .. »

قال هذا وناول اللجام القسيس . فأمسكه هذا إمساك
الخبير ، كإنحاً جماح الجوادين ، وقد علا أشدا قهها الزبد . ثم
صعد المركبة مسرعا ، وجلس في مكان السائق .

لكن رفيقه الحازم ، المتبصر في العواقب ، جعل يتردد
ويقول : « إني أيها الصديق أأتمنك على نفسي وروحي وعقلي ،
عن سرور ورضى . ولكن إخال أن الجسد والعظام ليست
في مأمن من عاديّات الزمان ، اذا كانت اليد المقدسة هي
القابضة على هذه اللجْمِ الدنيوية الفانية . »

فقال له الآخر ، وهو يحاوره مبتسما : « ادخل الى المركبة
بسلام ، وأتمنّ على جسدك وروحك على السواء ! كن مطمئنا ،
فان هذه اليد ألفت منذ عهد بعيد أن تقبض على اللجْمِ ، والعين
قد مرّنت على سلوك أقوم الطرق . وقد تعلّمتنا في
استراسبورغ كيف نسوق المركبات ، حين ذهبنا إلى هناك في صحبة
ذلك البارون الصغير . (١) وفي كل يوم كنت أتولى قيادة

(١) كثيرا ما يبدأ القسس حياتهم — خصوصا في الزمن الذي نحن بصدده —
كمؤدّين لأبناء الأشراف

المركبة ، فتمرق بنا من وسط الباب الكبير المرجع للصدى ،
وتعدو بنا في طريق تربة ، الى المروج ، والى الغابات البعيدة ،
وسط الجموع الغفيرة من الناس الذين لا عمل لهم غير التنزه
طول النهار . »

عند ذلك تجلد الصيدلى ، بعض الشيء . فصعد المركبة .
وجلس فيها جلسة الرجل الحازم المتأهب فى كل لحظة
للوثوب إلى الخارج .

وانطلق الجوادلان تلقاء الدار . وبهما الى الاصطبل شوق .
فكان يتصاعد من تحت سنايكهما سحب من العُشِيرِ المثار .
وقد وقف الفتى طويلا ، يحدق فى الغبار إذ يصعد . ثم
يتفرق فى الهواء ذرة ذرة . وهو تائه العقل حائر اللب .
لا يفكر فى شيء .

....

النشيد السابع

ايراتو ERATO

(الهة الغزل والفسيب)

دروتيه

لقد يقف ابن السبيل عند الغروب ، ينعم النظر في
ذكاء ، ثم يلقي عليها وهي آخذة في الاختفاء بسرعة نظرة
عجلى ، فلا يزال يرى صورتها تهتز وسط الأدغال القائمة .
وفوق الجنادل والصخور ؛ وحيثما اتجهت نظراته . فثم وجهها
يلسع مهتزا في ألوان بديعة . . . كذلك كان هرمن . فحيثما
نظر رأى صورة الغانية الفتاة تمر أمامه على مهل . وكأنما
تسير في الممر الضيق الذى يخترق مزرعة القمح .
لم يلبث أن أيقظ نفسه بعنف من هذه الرؤيا التى أدهشته .
ثم أدار وجهه نحو القرية ، فازدادت دهشته . إذ رأى القوام

العالمى لتلك الفاتنة مقبلا نحوه . فأنعم النظر ، ورأى أن هذا لم يكن وهما . وأن هذه هى حقا . قد اقبلت وهى تحمل فى يديها جرتين : قد أمكست بقبضتيهما . وجعلت كبراهما فى اليمين والصغرى فى اليسار . وهى تمشى بجهد ونشاط نحو الينبوع .

تقدم هر من نحوها مسرورا ؛ وقد بعث منظرها فى قلبه القوة والعزم . وخاطبها . وقد تولاها شئ من الدهشة . فقال : « هاأنذا ألقاك مرة أخرى ، أيتها الغادة الباسلة ، دأبة على عمل جديد تساعدين به العاجزين وتحيين به النفوس البائسة . لكن حدثنى ! كيف قصدت وحدك الى هذا الينبوع على بعده . وأكثر من بالقرية يكتفون بما هنا لك من الماء ؟ ولوان هذا الماء حسن المذاق . مفضل على سواه ؛ وكأنى بك ستحملينه الى تلك المريضة . التى أنقذتها بما بذلت لها من رعاية وعناية . فحيته الفتاة أحسن تحية ، وقالت : « لقد جوزيتُ أحسن الجزاء على أن قطعتُ كل هذا الطريق الى الينبوع ، بأن لاقيت الرجل الكريم ، الذى أمطر علينا الهبات ؛ وإن النفس لتسر لمراى المحسن ، كما يسرها منظر الاحسان . فتعال وانظر

بنفسك إلى الذين نَعِمُوا بما منحتهم ، وتلقَ منهم ، على صنيعةك ، أطيب الحمد والثناء .

وإنك لترانى وقد قطعت هذا الطريق ، لكي أعترف من هذا ينبوع الذى يتدفق منه الماء صافياً طهوراً . فما ذلك إلا لأن الناس باهمالهم قد كدروا كل ما بالقرية من ماء . وتركوا الخيل والثيران تخوض فى ينبوع الذى يسقى القرية وأهلها . وكذلك لو تَوَّأ جميع الأحواض بما غسلوا وما رخصوا فيها . حتى لم تعد هنالك بئر واحدة نظيفة . لأن كل فرد لا يعنيه إلا أمر نفسه ، ويريد أن يقضى حاجته بسرعة ، من غير أن يكثر لحاجات الناس . »

ولم تكذ تتم حديثها ، حتى اخذت تنزل الدرجات وهرمن الى جانبها ؛ ثم جلسا ، كلاهما ، على الجدار الصغير حول ينبوع . وانحنى فوق الماء لتعترف منه . وأمسك هو بالجرة الأخرى ومال فوق الحوض ليغترف . فأبصر صورتيهما ، وقدار تسمتا فى زرقة السماء الصافية المنعكسة على صفحة الماء . وهنالك نظر إليها ونظرت إليه ، وحياتها وحيته . ، فى تلك المرأة الصافية المصقولة .

وقال لها ، وقد سروطرب ، : « ناوليني شربة ! » فأمسكت
له جرتها حتى شرب . ثم استراحا قليلا وقد اتكأ كل منهما على
جرة : وقالت هي للصديق : « انى أراك هنا ، بعيدا عن
الموضع الذى قابلتك فيه ، بلا خيل ولا مركبة . فكيف
وصلت إلى هذا المكان ؟ »

فأطرق هرمن مفكرا . ثم رفع رأسه ، وجعل يحدق فى
عينها ، بنظرات الصديق المخلص : فأحس كأنما قد عاد إلى
قلبه الهدوء والطمأنينة . ولكن كان يرى من المستحيل أن
يحدثها حديث الهوى . إذ لم يلمح فى نظراتها الحب ، بل العقل
والروية يأمرانه أن يتكلم بعقل وروية . فملك زمام نفسه
بسرعة . وقال : « دعيني أحدثك وأجيبك صراحة على سؤالك :
إنى جئت إلى هنا من أجلك أنت . ولست أرى داعيا لأن أخفى
عنك هذا . إنى أعيش سعيدا مع والدين برّين ، أعاونهما فى
شئون الدار ، وفى إدارة العقار . إذ ليس لهم من الأبناء غيرى .
وأعمالنا متعددة الشكول ، متشعبة النواحي . وأكبر ما أعنى
به المزرعة ، أما والدى فيدير المنزل بحمد وهمة . والوالدة
النشيطة تعمل أبدا وتدأب فى سائر مرافق الحياة . وما إخالك

الا قد مارست هذه الأعمال جميعا ، وعرفت ما تسببه الخادמות
لربة الدار من عناء ، بالخيانة حينما وبالرغبة أحيانا . فتضطر
لأن تبدل خادما مكان خادم . وهى بهذا إنما تبدل نقصا مكان
نقص ، وعموبا جديدة مكان العيوب القديمة . لهذا كانت أسمى
منذ عهد بعيد تتمنى أن ترى فى الدار فتاة تعاونها لا باليدى
فحسب ، بل بالقلب والضمير ايضا . فتكون لها عوضا من
ابنتها التى سلبتها المنون إياها من قبل .

« واليوم وقد أبصرتك إلى جانب المركبة ، ورأيت
الساعدين القويين . والصحة البادية فى كل جارية من الجوارح
وسمعت منك الألفاظ الممتلئة عقلا ، تملكنى الدهشة والاعجاب
وعدت مسرعا إلى الدار . وجعلت أمدح هذه الغريبة بالذى
تستحقه أمام الوالدين والأصدقاء . والآن عدت إليك لأحدثك
بالذى يبغونه منك . . اغفرى لى ترددى فى الكلام وحيرتى . .
فقلت له : « لا تخش ضيرا فى أن تتم حديثك ، وليس
فى الذى ستقوله ما يشينى . وإنى لم أحس . وأنا أصغى إليك
غير عاطفة الشكر ، فقل بصراحة ما تريد أن تقوله . فليس فيه
ما يزعجنى . إنك تريد أن تدعونى لأكون لوالديك خادما

أمنية ، كي أعني بشئون منزلكم ، الذي أعددتموه أحسن اعداد .
وأنت تظن أنك ستجد في فتاة جادة ، تقبل على العمل باسمه
الشعر ، ليس في طبعها خشونة ولا جحود . . لقد كنت في
عبارتك موجزاً . وسيكون ردى عليها موجزاً . أجل إنى قابلة
أن أذهب وإياك وأن ألبى نداء القدر . وقد أتممت ما على هنا
من واجبات . فأسلت النفساء إلى أهلها ، وكان سرورهم
بالنجاه لاحدله . وأكثر الشريدين قد التقوا بذويهم ؛
والآخرون سيقابلون قريباً : وهم جميعاً يحسبون أن سيعودون
إلى أوطانهم بعد أيام قلائل : وهذا دأب الطريدين إذ يغرون
بأنفسهم . أما أنا فلا أخدع نفسي بالأمانى الكذاب في هذه الأيام
العصيبة ، التي تنذرنا بما هو أشد منها هولاً . إن الروابط التي
تصل بين أواصر العالم قد انحلت عراها . فأى قوة تستطيع
أن توثقها مرة أخرى . اللهم إلا قوة الشقاء الجسيم ، الذي
يتهددنا ويوشك أن يحل بنا ؟

«ولئن أتيح لى أن أكون خادماً في بيت رجل جليل ، وأن
أعول نفسى من هذا السبيل ، في رعاية امرأة طيبة صالحة ،
فانى أقبل هذا عن رضى وارتياح . والفتاة التى تقضى أيامها

في التنقل من أرض إلى أرض ، يكثر حمله القيل والقال .
أجل إنى ذاهبة معك ، فأملنى حتى أحمل الجرتين الى
الأصدقاء ، وتعال لكى تراهم حين يستقبلوننا . »

أصغى الفتى مسرورا إلى هذا القرار الذى قطعتة العادة
عن رضى وارتياح ، وجعل يسأل نفسه هل يفضى إليها
بالحقيقة الآن ؛ فبدا له أن الأوفى أن يتركها وما توهمت ،
ثم يذهب بها الى منزله ، فلا يحدثها حديث الحب إلا هناك .
ثم لاحظ فى شئ من الأسف أن باصبعها خاتما من الذهب ،
فلم يحرك كلاما ، وأكتفى بالانصات لما تقول .

فقالت له : « لنرجع أدراجنا الآن ! فان الناس
يوجهون قارس اللوم إلى الفتيات ، اللواتى يطلن المسكث عند
البئر ، مع ان الكلام لدى ينبوع المتدفق من أحب الأشياء
الى النفس . »

عند ذلك نهضا واقفين ، ونظرا مرة أخرى فى الماء .
فبعثت هذه النظرة فى كل منهما احساسا رقيقا ، وشعورا عميقا .
ثم حملت الجرتين ممسكة بقبضتيهما . وصعدت الدرج
وهرمن على أثرها . وقد طلب إليها أن تناوله إحدى الجرتين كى

يقاسمها العبء الذى تحمله ، فقالت : « دعمها لى . فان فى حمل الاثنين معا ، ما يبعث على اتزان الجسم ، فلا يتعبنى حملهما . ويجب أن أذكر ان السيد الذى سيكون لى أمرا ، أولى به ألا يقوم الآن بخدمتى . وفيم تنظر إلى هذه النظرات الحزينة ؟ كأن الذى أنا صائرة اليه أمر يبعث الحزن والهموم . ان واجب المرأة يقضى عليها أن تتعلم كيف تخدم ، كى تؤدى وظيفتها فى الحياة . فبالخدمة وحدها تستطيع المرأة ، مهما طال المدى ، أن تنال السيادة التى هى بها جديرة وحقيقة . فتصبح لها فى دارها الكلمة العليا .

« وهكذا تأخذ الأخت مبكرة فى خدمة شقيقها وفى خدمة والديها . فحياتها أبدا حركة دائمة : جيئة وذهاب ، ورفع ووضع ، وإعداد أشياء وإجهاد للنفس من أجل الغير . . وما أسعدها حين تعتاد نفسها كل هذا . فلا ترى فى شئ غضاظة . ولا ترهف فى عمل مهما كان حقيرا تافها . وسيان لديها فى ساعات الليل تعمل أم فى ساعات النهار . . . أجل ما أسعدها إذ تصبح وقد نسيت نفسها تماما ، فلا تحيا إلا من أجل الآخرين ! وما أحوجها إلى كل هذه الفضائل حين تغدو والدة : حين

يوقظ الطفل الرضيع أمه ، طالبا الغذاء ، وهي بعد ضعيفة
هزيلة ، وما كفاها ما تعاني من ألم ، حتى تضطلع بهموم جديدة .
ولن يستطيع عشرون رجلا أن ينهضوا بهذا العبء ،
ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وفي الحق أن هذا ليس من شأنهم ،
ولكن لا أقل من أن يعترفوا للبرأة بالفضل ، ويقابلوه
بالشكر . »

بهذه الكلمات نطقت الغادة ، مخاطبة رفيقها ، وهو لا
ينبس بكلمة . وقد اجتازا الحديقة ووصلا إلى فناء الجرن . حيث
اضطجعت النساء ، يصحبها الشقيقتان اللتان نجتا من الهلاك .
وقد دخلتا عليها في تلك اللحظة فاذا هما ملسكان طاهران ودخل
من الناحية الأخرى في الوقت نفسه ذلك القاضي الوقور .
ممسكا بيده طفلين قديست من لقاتهما أمهما المسكينة ، واستطاع
الشيخ الآن أن يجدهما وسط هذه الجماهير المضطربة . وقد
وثبا مسرورين ليحييا أمهما الراقدة . ويحييا الطفل الرضيع
الذي سيغدو لهما رفيقا يلاعبانه ويداعبانه . ثم وثبا نحو
دروتيه وسلبا تسليم الصديق المتحمس . وطلبا منها خبزا وثمرأ
وماء ليشربا ؛ فأمسكت الجرة وناولتهما الماء فشرب الاطفال ،

وسقت النفساء وأختيها ، وسقت القاضي . وقد شربوا جميعا
وارتووا ، وأثثوا على الماء القراح ، الذى طاب مذاقا ، وفيه
غذاء وشفاء .

وعند ذلك قالت الغادة وهى تنظر اليهم نظرات جد :
« أيها الأصدقاء ! إني لأخشى أن تكون هذه آخر مرة أدنى
الجرة إلى ثغوركم فأبلل بالماء شفاهكم . ومنذ اليوم ، اذا اشتد
بكم الحر فلتم إلى الظل تطلبون الراحة ، وتطفئون الغلة إلى
جانب عين جارية . فهنا لك فلتذكرونى ، ولتذكروا ما قتت
به من خدمة كان يبعثها حبي لكم ، لا مجرد القرابة التى تجمعنا .
أما ما أسديتم إلى من جميل فإني ذاكرته مدى الحياة . لعمرى
إني لأحزن لفراقكم . ولكسنا أصبحنا بحال أنا فيها أدنى أن
أكون عبئا عليكم من أن أكون عوناً لكم . وإذا حيل بيننا وبين
أوطاننا فليس لنا بد - قريبا أو بعيدا . من أن نتفرق فى بلاد
الغربة .

« انظروا ! هذا هو الشاب الذى ندين له بهذه الهدايا : بهذا
الكساء للطفل الرضيع ، وتلك الاطعمة الشهية . لقد أقبل
الساعة يسألنى أن أذهب الى داره ، لى أقوم بخدمة والديه

صاحبي الغنى والجاه . فلم أرد هذا الطلب . لأن واجب الفتاة
يقضى عليها بأن تخدم : وانها ليشق عليها أن تجلس في البيت
مستريحة . تاركة لغيرها أن تقوم بخدمتها . لهذا سأمضى منشرة
الصدر مع هذا الشاب ، وقد ألفتته عاقلا ذكيا : وكذا سيكون
الوالدان من غير شك . كما يليق بقوم ذوى يسار .

« فيا صديقي العزيزة أستودعك الله : ولتقر عينك برضيعك
الذى ينظر إليك الآن نظرات ملؤها الصحة والحياة . فاذا
ما ضممته إلى صدرك وهو في هذه اللقائف المتعددة الألوان .
فاذكري الشاب الذى أهدها إلينا . والذى سأنال منه أنا أيضا في
المستقبل ما به اكتسى واغتدى . وأنت أيها الرجل الجليل
(مخاطبة القاضي) لك منى جزيل الحمد على أن كنت لى أبا
ونصيرا فى مواقف عديدة . »

ثم ركعت جاثية بجانب الأم الراقدة . وقبلت وجها باللثة
العبرات . وأنصت إليها ، وهى تمطرها صالح الدعوات
بصوت هادىء خافت .

وفى هذه اللحظات كان القاضي الفاضل يقول لهرمن .
« إنك أيها الصديق لجدير بأن تعد من أعقل أصحاب المنازل . »

الذين يعرفون كيف يختارون لادارة دورهم أكثر الناس
دراية وكفاية . وعهدى بالناس اذا أرادوا اقتناء الخيل أو
البقر أو الغنم ، سواء بالمبادلة أو بالشراء ، ان ينعموا النظر .
ويحققوا .. ويدققوا . أما الانسان الذى يستطيع أن يصلح
كل شئ فى الدار ويحفظه ، ان كان صالحا ، وأن يفسد كل شئ
ويحرب كل شئ بالخرق والطيش . فانه يؤتى به إلى الدار
بمحض الحظ والمصادفة . فلا يلبث أصحاب الدار أن يندموا
على تسرعهم حين لا يجدى الندم . أما أنت فيبدولى أنك قد
فهمت هذا الأمر جد الفهم . وقد لعمرى عرفت كيف تختار
لخدمتك وخدمة أبويك فتاه قل نظيرها . . فاقدرها حق
قدرها ! وما دامت هى القائمة على يتكم . فلن تشعر بفقد
الأخت . ولن يحس أبواك فقد ابنتهما . »

وفى تلك اللحظة أقبل كثير من أقارب النساء يحملون
الهدايا . ويسوقون إليها البشرى بأن ستنقل الى مسكن خير
من الذى هى فيه . وقد سمعن جميعا ما قر عليه رأى الفتاة .
فنظرن إلى هرمن نظرات ذات معان ، تنبئ عما يدور
بخاطرهن من أفكار يحاولن إخفاءها . وقد مالت واحدة منهن

الى صاحبتهما وهمست في أذنها قائلة : « ولئن انقلب المولى
عروسا فقد سعد جدّها . »

عند ذلك قبض هرمن على يدها وقال لها : « هلم بنا ! إن
النهار يوشك أن ينقضى . والبلدة بعيدة . » فجعلت دروتيه
تعاقد النساء ، وهى تودعهن . فجذبها هرمن وهى تحي الجميع
أحسن تحية . وأمسك الأطفال بثوبها وهم يبكون ويتحجبون
ولا يريدون أن يدعوا أمهم الثانية تغادرهم . فجعلت كل من
النساء تأمرهم بأن يخلدوا الى السكون ، قائلة : « لم هذا البكاء ؟
وهى انما تذهب الى المدينة لتأتىكم بتلك الحلوى الكثيرة .
التي أوصى بها أخوكم الرضيع . حينما حملة اللقلق الصغير إلى
هنا (١) مارا بدكان الحلوانى . وسترونها بعد قليل . وقد
عادت اليكم بالقراطيس الذهبية الجميلة . »

هنا لك أطلق الأطفال سراحها . فانطلق بها هرمن . ولأيا
ما استطاع أن ينجو بها من كل هذا العناق . ثم من الاشارات
بالمناديل بعد أن ابتعدا .

(١) فى بعض بلاد أوروبا اذا ولد طفل ، وجعل الاطفال الصغار يسألون من أين
جاء هذا الصغير : فيجيبهم الكبار بأن قد جاء به طير اللقلق أوشى آخر . والعبارة قد
تختلف قليلا من بلد الى بلد

النشيد الثامن

MEL POMENE ملبوميني

(الرنه الماسي)

هرمن ودروتيه

انطلق الاثنان ، وأمامهما ذكاء قدمالت للغروب ، مستتره
خلف غشاء كثيف من السحاب المنذر بالرعد وبالأمطار .
والشمس من وراء ذلك القناع تبعث بنظرات ملتبهه ، طورا هنا
وطوار هنالك ، فتسكب على الفضاء أشعة سحرية مبهمه ، قد
كمن فيها نذير الشر .

قال هرمن : « عسى ألا يرسل إلينا هذا السحاب المكفر
برداً أو وابلا منهمرا ، فيفسد غلة هذا العام على حسنها . »
وقد سر الاثنان لمنظر القمح ، وقد تمايلت سنابله على
سوقه . ويوشك أن يبلغ في الطول قامة الصديقين اللذين

يسيران وسطه الآن .

وقالت الفتاة لصاحبها : « أيها الرجل الصالح ، الذي امسيت
له مدينة بهذا المصير الحسن ، وبهذه الدار التي ستؤويني وتظلني ،
بينما يبيت كثير من الطريدين في العراء ، عرضة للعواصف
والأمطار . حدثني الآن ، وقبل كل شيء ، عن أبويك اللذين
سأقوم بخدمتهما ، واللذين أميل اليهما بكل قلبي . فأطلعني على
جالية أمرهما ، لأن من عرف مولاه سهل عليه ارضاءه . بأن
يكون حريصا على كل شيء يراه هو في المرتبة الأولى ، وقد
وقر في نفسه أنه أكثر خطرا من كل شيء سواه . لهذا سألتك
أن تخبرني كيف أستطيع ارضاء الوالد والوالدة . »

فأجابها الفتى : « إنك أصبت كل الاصابة إذ تسألين عن
خلق الوالدين وعن طباعهما . فقد قضيت عمري وأنا أحاول
عبثا خدمة أبي وارضاءه بأن أقوم بإدارة العقار كله ، كأنما
أديره لنفسى ، وأتعهد الحقول والكروم صباحا ومساء . أما
والدتي فمن السهل أن أكسب رضاها ، لأنها تقدر الجهد وحق
قدرها .

وأنت أيضا ستصبحين لديها خير الفتيات وأفضلهن ، اذا

عנית بأمر المنزل كأنه منزلك . أما والدى فليس من هذا الطراز ، لأنه يحب المظاهر البراقة الخلافة . ولا تهميني أيتها الفتاة الطبية بالبرود أو بالقسوة ، أن كشفت لك عن أمره ، وأنت بعد غريبة عنا . وإني أقسم لك أن هذه أول مرة انطق فيها بمثل هذا القول . وما أنا ممن يحبون كثرة القيل والقال . لكن مرآك يبعث الثقة في النفس ، ويجعلني مطمئنا لأن أتحدث اليك في مثل هذه الأمور . فوالدى يتطلب في الحياة شيئا من المداهنة . ويود أن يبالغ الناس في اظهار الحب له والاحلال والاكرام . ولقد يسر أحيانا من خادم خائن يعرف كيف يستغل طبعه هذا ، وبالعكس قد لايسره المخلص الأمين . »

فقالت الفتاة وهى تسرع الخطى . وقد أخذ الليل يرخى سدوله : « لكنى أرجو أن اكتسب رضى الاثنين . فطبع الأم موافق طبعى تماما . وعدا هذا فانى قد ألفت منذ الصبي أن الألف وأجامل . فان جيراننا الفرنسيين فى الزمن الغابر (١) كانوا يجعلون للادب واللياقة أهمية كبرى . فكان التمسك بالآداب فرضا على الأشراف النبلاء وعلى الطبقات الوسطى

(١) أى قبل أن تبدل الثورة من طباعهم

من أهل المدن ، والفلاحين العاملين على حد سواء . فكان الكل
 يفرضها فرضاً على أهله وعشيرته . وقد سرت إلينا ، نحن
 جيرانهم من الألمان ، تلك العادات ، فترى الأطفال عندنا
 في الصباح يقرئون الآباء السلام . مكبين على أيديهم يقبلونها
 مظهرين نحوهم كل إجلال وإعظام . وهكذا أبهم طول النهار .
 فهذه كلها أمور ألفتها ودرجت عليها منذ الحداثة حتى
 باتت لي طبعاً وخلقاً ، وسأبديها كلها لتلقاء الشيخ الوالد .
 ولكن من مخبري الآن كيف ألقاك أنت وكيف أعاملك :
 أنت الابن الوحيد الذي سيكون لي في المستقبل سيداً أمراً ؟
 وعند ما نطق الفتاة بهذه العبارة . كانت قد وصلت
 ورفيقها إلى شجرة الكمثرى . وقد أشرق البدر التمام ،
 وجعل يرسل ضياءه من السماء ، واختفت الشمس تحت
 الأفق فلم يبق منها شعاع ولا ضياء : فكان أمامهما أنوار مضيئة
 كأنها النار الساطع ، وظلال معتمة كظلام الليل البهيم .
 وقد أنصت هرمن إلى ذلك السؤال ، وهو واقف معها
 تحت ظل الدوحة الباسقة ، في أحب بقاع الأرض إلى نفسه .
 حيث كان يذرى الدمع في ذلك اليوم بعينه ، من أجل هذه

الطريدة الواقعة بجانبه .

جلست الفتاة في ظل الدوحة لتستريح قليلا ، فأجابها
الفتى العاشق على سؤالها ، وهو قابض بيده على يدها : « دعي
قلبك يوح إليك بما تفعلين ، ثم أجيبي وحيه ، ولبي ندائه
في كل شيء . »

ولم يحز أن يزيد على هذا حرفا ، وكان الوقت مؤاتيا ،
والفرصة سانحة ، ولكن خشي أن يتعجل كلمة النفي . وآلمه
حين قبض على يدها أن أحس ذلك الخاتم على أصبعها . ولهذا
جلس الى جانبها لا يحرك ساكنا ، ولا ينطق بكلمة .

لكن الفتاة قطعت حبل الصمت وقالت : « ما أبدع ضياء
البدر وما أعذبه ! إنه ليحاكي ضوء النهار ، حتى لا بُصر من هنا .
في جلاء ووضوح ، ديار المدينة وقصورها ، وأرى هناك غرفة
تحت نافذة ، ولقد استطيع أن أحصى ما بها من قطع الزجاج . »
فقال الفتى وهو يكتف عواطفه : « ان هذا الذي تريته هو
منزلنا . حيث أذهب بك الآن . وتلك الغرفة الملاصقة
للسقف هي غرقتي ، وقد تغدو غرفتك قريبا . لأننا كثيرا
ما نغير من نظام المنزل . وهذه هي مزارعنا ، وقد نضجت

ثمارها وحان وقت الحصاد . وفي ظل هذه الشجرة يجلس وقت
الظهيرة لتتناول غداءنا .

والآن هلم بنا نمش وسط الكرم ، ثم نجتاز الحديقة
إلى الدار . فاني أرى السحاب المطير يوشك أن يغشانا ويغشى
البدر التمام ، وهذى بروقه أخذت تلعب . »

ثم نهضا من تحت الشجرة ، وجعلا ينحدران وسط
المزرعة ، ما بين قمح قد علا ونما وسرهما ما يحيط بهما من
ضياء لامع منتشر . ولم يلبثا أن وصلا الى الكروم ، وتحت
عرشها ظلام حالك ، فجعل الفتي يقودها ، وهو ينزل بها
تلك الدركات الحجرية الخشنة ، الممتدة وسط العريشة .
فأخذت الفتاة تنزل في ريث وأناة . مسندة يديها الى كتفيه .
وكان القمر يطل عليها من خلال الكرم بأشعة ضعيفة تهتز
وتضطرب . ثم لم يلبث أن غشيته السحب وخلفها في ظلام
قاتم . فجعل هرمن يمشى بتؤدة ، والفتاة مستندة اليه ، على
قوتها . وهي تمشي خلفه بدركة واحدة . ولكنها الجملها الطريق ،
ولما بالدرج من خشونة وسوء انتظام ، تعثرت في مسيرها ،
وزلت بها رجلها . وكأما التوت قدما ، فسمع لها صوت .

ومالت الفتاة لتهوى ، لولا أن أدار الشاب وجهه مسرعا ،
وبسط ذراعيه وأمسك بهما جسمها المحبوب ، فسقطت متساندة
على كتفيه ، وقد ألصق في تلك اللحظة صدرها بصدره ،
ولامس خدها خده ، ووقف هو ساكنا كأنه تمثال من المرمر .
وليس في قلبه ذرة من العيث . فلم يضمها الى صدره إلا بمقدار
ما يمنعها من السقوط . ومع ذلك فقد كانت عبئا جميلا ،
وكان يحس حرارة صدرها وقد لامس صدره ؛ وعبير أنفاسها
الشافية يهب على شفثيه . لكنه كان محتملا لجثمانها ، وليس في
صدره غير شعور الرجل القوى العزيمة .

أما هي فسرعان ما أخفت ما بها من ضر ، وقالت وهي
تضحك : « في عرف الناس ذوى العقل والبصيرة ، اذاالتوت
الرجل عند عتبة البيت فان هذا ينذر بشر مستطير . وكان
أولى بك أن تجدلى فألا خيرا من هذا الفأل . والآن فلتتمهل
قليلا ، كي لا يلومك أبواك على أن أحضرت اليهم خادما
عرجاء . فنبذو أمامهم ربّ دار كثير الاهمال . »

....

النشيد التاسع

أورانيا URANIA

(الهة الفلك)

مستقبل !

أى آلهات الفنون (١) ! يا من يسرهنَّ أن يُحسِنَ الى
العاشقين المغرمين ! لقد أخذتن بيدهما الفتى الصالح، وسلكتن
به اسلم الطرق ، حتى لقد ضممتن صدره الى صدر حبيبته ،
من قبل أن تعقد بينهما خطبة ، ألا فلتساعدن الآن على توثيق
تلك الرابطة التى ستجمع بينهما ، ومزقن تلك السجب التى تعكر
صفاء سعادتهما . واقصصن علينا ، قبل كل شئ ، ما يجرى الآن بالدار .

(١) الاستنجاد بالموزات (Musen) شئ مألوف فى الشعر الحماسى . ولكن
جوته لم يلجأ إليه إلا فى هذا الموضع . بعد أن كاد يفرغ من كتابة قصته فى أسلوب
سهل خال من كل تكلف

* * *

عادت الام للمرة الثالثة الى حجرة الرجال ، وقد بلغ منها
القلق مبلغه ، وكانت قد غادرتها منذ لحظة ، حينما طغى السحاب
على القمر ، واحست بدنو العاصفة . وساورها الخوف على
ابنها ، لتخلفه إلى تلك الساعة وسط الليل البهيم وأخطاره .
فجعلت توجه إلى الصديقين قارس اللوم ، إذ رجعا دون
أن يتحدثا إلى الفتاة ، أو يقولوا كلمة من أجله . بل تركا الفتى
وشأنه ، وعادا مسرعين .

فقال لها الوالد : « لا تجعلى الشر أسوأ مما هو ! فنحن
مثلك قد أضجرنا الانتظار ونريد أن نستقر على حال . »
وأخذ الصيدلى يتكلم بهدوئه المعهود دون أن يتحرك من
مكانه ، فقال : « حينما تمر بي ساعة كالتى نحن فيها الآن ، يستحوذ
فيها على الناس القلق ، وينضب معين الصبر ، عند ذلك
أبادر بشكر والدى المرحوم ، الذى استأصل من نفسى جذور
القلق والضجر ، حين كنت فى الدار صبيبا ؛ فلم يبق منها فى
صدرى أثر ، وأمسييت حليما صبورا ، كأكبر العقلاء
وأحزمهم . »

فقال له القسيس : « وأى آلة استخدمها أبوك الشيخ
للموصول الى هذا الغرض ؟ » فأجاب الآخر : « يسرنى أن
أقص عليكم ذلك القصص . وفي وسع كل منكم أن يستفيد
منه أجل الفوائد . كنت مرة - وأنا بعد صبي - أنتظر بفارغ
الصبر قدوم المركبة التي ستقلنا في يوم الأحد إلى البئر تحت
أشجار الزيزفون . لكن المركبة لم تجيء . فجعلت أجرى
كالوزغة من مكان إلى مكان ، صاعدا نازلا ؛ طورا أنظر من
الباب ، وطورا أطل من النافذة . وأحسست حكة في يدي ،
فجعلت أحدث في المائدة خدوشا ، واضرب الأرض برجلي ،
بل كدت أبكي بكاء . . . رأى الوالد كل هذا وهو في
سكونه المألوف . ولكنه لما آنس أن الهياج قد بلغ منى درجة
الجنون ، أخذ بذراعي في هدوء : ومشى بي إلى النافذة ، وألقى
على سمعي هذه العبارة الحكيمة : « أنظر الى هناك ! ترذلك
النجار قد أغلق دكانه اليوم ! لكنه سيفتحه غدا ؛ وعند ذلك
يتحرك المنشار ويتحرك (الفأرة) ولا يزال يجد ويعمل من
الصباح الى الماء . . . لكن تذكر ولا تنس أنه سيأتي يوم
يشغل فيه ذلك النجار هو وجميع مساعديه ، كي يصنعوا لك

نعشا، يهيمونه ويتمونه بسرعة. ثم يبادرون بنقل هذا المنزل الخشبي إلى هنا، وهذا المنزل هو المصير الذى يؤول إليه الناس جميعا سواء منهم من كان صابرا، أو من كان ضجرا، وبعد ذلك يوضع المرء تحت سقف ثقيل.

« كل هذا رأيته ماثلا فى خاطرى : فكأنما رأيت الألواح تمد، واللون الأسود يعد، لى تصبغ به الألواح. عند ذلك زابلنى الضجر، وجلست أنتظر المركبة فى صبر وسكون. ومنذ تلك اللحظة، اذا أبصرت الناس فى هرج ومرج من جراء أمر أقلقهم انتظاره. عند ذلك يخطر النعش بى إلى فالزىم الهدوء. » فتبسم القسيس ضاحكا وقال : « ان منظر الموت، وإن أثر فى النفس، لا يزعج الرجل العاقل ولا يرى فيه المؤمن أنه الغاية التى ليس وراءها شىء. فأما الأول فان منظر الموت يشير فى نفسه روح الجد والعمل، وأما المؤمن فانه يقويه فى ساعة المحنة بما يبعثه فى نفسه من الأمل فى السعادة المقبلة (١)

(١) أى أن الناس أمام الموت إما رجل « يهتدى بفكره أو رجل يهتدى بإيمانه ودينه. وليس معنى هذا أن المتدين لا يفكر أو أن المفكر لادين له. وإلا لما جاز القسيس أن يفوه بهذا الكلام. وكل ما هنالك أن الانسان اذا استرشد بفكره أو بإيمانه فليس فى الموت ما يدعو إلى الجزع.

فيصبح الموت في نظر كل منهما هو الحياة بعينها . . . وقد كان خطأً من الوالد أن صور لابنه — وهو بعد ذو شعور حساس — الموت ، في شكله الرهيب ، وإنما يجب علينا أن نرى الشباب ما في الشيخوخة من نضوج وجلال ، ونرى الشيوخ منظر الشباب ، لكي يجد الاثنان لذتهما في مراقبة تلك الدورة الأبدية ، وكأها حياة في حياة . »



في تلك اللحظة فتح الباب ، وظهر الفتى والفتاة ، في روعة وفي جلال ، فدهش الصديقان ، ودهش الأبوان إذ أبصرا العروس ، وقوامها يكاد يدنو من قوام الفتى ، حتى لقد خيل اليهما أن الباب أصغر من أن يسع هذين القوامين السمرين . خطا الاثنان معا فوق العتبة ، وبادر هرمن بتقديمها لوالديه بألفاظٍ عَجَلَةٍ سريعة . فقال : « هذه فتاة تتمنيان أن يكون لديكما مثلاً . فأكرم وفادتها أيها الوالد العزيز ، وأنت يا أماه ! سلبها عن شئون المنزل جميعاً ، لكي تدركي أنها أجدر الناس بأن تقربها إليك ، وتدنيها منك . » والتفت هرمن الى القسيس ، واتحى به ناحية ، وقال له

همساً : « أيها السيد الجليل ! أعنى بالله على الخروج مما أنا
به من مأزق . وساعدنى على حل عقدة ، أخشى أن تسوء
حالها ، إن لم تتداركها بسرعة . فأنى لم أطلب إلى الفتاة أن
تكون لى خطبة ، وهى تظن أنها تنزل البيت خادماً ، لا
عروساً . وأخشى أن تفر هاربة منا لمجرد ذكر الزواج .
فلنمض فى سبيلنا بسرعة ؛ ويجب ألا ندعها فى خطئها هذا
طويلاً . وأنا كذلك لا أطيق البقاء فى ظلام الشك طويلاً .
فأسرع بربك ، وأظهر الآن ما نعهده فىك من عقل وحكمة . »
عند ذلك التفت القسيس الى الجماعة يريد مخاطبتهم ،
ولكن كانت الفتاة ، ويا للأسف ، قد أخدمها الكدر مأخذه ،
حين أنصتت لمقالة الوالد ، ولو انه تكلم بنية حسنة . وبفكاهته
المألوفة . فقال : « نعم ما فعلت يا بنى ! ولقد سرنى ان يتشبه
الولد فى حسن ذوقه بالوالد ، الذى كان لا يصطحب الى
المراقص غير أجمل الفتيات . ثم اختار أخيراً أبهى النساء
زواجه وهما هى الآن : الأم العزيزة المحبوبة . ولعمري إن
الرجل — عند اختياره لزوجته — ليعان للناس عن حصافته
وعن عقله ، وعما اذا كان يأنس فى نفسه فضلاً وجدارة . أما أنتما

فلم تكونا بحاجة الى تفكير طويل ، قبل أن تقطع ابرأى . وأنت
يا ابنتى ما كان لك أن تترددى طويلا فى قبول هرمن .
وكان هرمن فى تلك اللحظة يخاطب القسيس ، فلم يسمع من
كلام أبيه الا نصفه ، ولم يكديعى ما تضمنه حتى جعلت جوارحه
ترتعد ، وقلبه يخفق . وساد السكون فجأة . وصمت الجميع .
أما الفتاة فقد جرحت عزة نفسها لكلام حسبه تهكما .
وسخرية منها . وبلغ الألم منها صميم القلب . وتصاعد الدم الى
وجهها . فعطى الحدين وصفحتى العنق . ولكنهما ملكت نفسها ،
وحاولت جهدهما اخفاء ما تحسه من ألم . ثم قالت للشيخ :
« لعمري ان ابنك لم يعدنى لمثل هذا اللقاء ، حينما وصف لى
السيد الوالد ، بأنه كأحسن ما يكون عليه أهل المدن من كمال
وفضل . . ومع على أننى الآن بين يدي رجل أوتى من العلم
والأدب النصيب الأوفر ، ويعرف كيف يعامل كل انسان
بما هو أهل له . فانى أظنك لا تحسن عطفاً ولا رحمة نحو
هذه البائسة المسكينة . التى دخلت دارك الساعة لىكى تسهر
على خدمتك . ولو كنت تحسن نحوى القليل من الرحمة .
لما خاطبتنى بكل هذا التهكؤم المر ، مهما كنت تحسبنى دونك

ودون ابنك منزلة وقدرا . لقد جئت اليوم ، وليس بيدي غير
حقيقية صغيرة ، إلى منزل فيه سائر الأمتعة ، وقد توافرت فيه
جميع وسائل الراحة والسعادة للذين يسكنونه . بيداني أعرف
لنفسى منزلتها ، وأقدرها حق قدرها . فهل من النبل والكرم
أن أقابل ، بمجرد دخولي الدار ، بهذا التهمك الذي يوشك
أن يلقي بي إلى خارجها ؟ »

استولى على هرمن الرعب ، فأشار الى القسيس أن يتدخل ،
ويبدد غيوم هذه الأغلاط . فبادر هذا الرجل العاقل ، وأقبل على
الجماعة . ورأى الفتاة الطريفة يتناهبها الكمدو الألم ، واغرورت
عينها بالدمع ، فلم يشأ أن يحل عقده الشك فورا . بل حدثته
نفسه أن يبلو أمر الفتاة أولا ، ويستطلع دخائل نفسها :
فخاطبها بالفاظ يختبرها بها ، وقال : « حقا انك لمتسrece ، قليلة
التروى ، أيتها الفتاة الغريبة . إذ قبلت على عجل أن تكوني
حادما عند قوم تجهلينهم وكأنك لم تفهمي أن هذا معناه أنك
ستكونين خاضعة لسلطان سادة آمرين ، ما دمت قد تعاقدت
معهم على القبول . وإن رضاك هذا ليحتم عليك الطاعة
والخضوع لأمر كثيرة . وليس أشق شئ في الخدمة تلك

الأعمال المنزلية المضنية ، ولا العرق المتصبب من جراء المجهود
الجسماني الذي لا ينقطع . لأن ما يعانيه رب الدار من هذا
لا يقل عما يعانيه الخدم . كلا : بل أشق ما في الخدمة أن
تجامل مولاك إذا ساء خلقه ، وأن تحملي ظلمه إذا ظلم ، وأن
تنصتي إلى أوامره المتضاربة المتناقضة ، إذا كان مترددا لا يعرف
لنفسه رأيا قاطعا ، وأن تقبلي من ربة المنزل ما قد تبديه من
عنف وشدة ، فهي سرعان ما يتملكها الغضب . وأن تتحملي
رعونة الأطفال . وما قد يبدوونه نحوك من قحة وغلظة .

« هذه كلها أمور تشق على النفس ، ولكن احتمالها أمر
لا بد منه لتأدية الواجب المفروض على الوجه الأكمل ،
من غير ملل ولا تدمير . وأكبر ظني أنك لست على شيء من
المهارة في هذا . مع أنه ليس هنالك شيء أيسر من أن يمازح
المرء فتاة على أعجابها بأحد الفتيان . »

سكت القسيس ، لكن كلماته نفذت إلى قلب الفتاة
الحساس . فلم تعد قادرة على ضبط نفسها ، وظهرت أشجانها
الكامنة . فجعل صدرها يعلو ويهبط ، والزفرات المحرقة
تتصاعد منه . وقالت ، وهي تسكب الدمع غزيرا : « ان الرجل

الذى يتحدث بعقل وبمنطق ، ويريد أن يعظنا فى وقت
الحنة ، قلما يدرك أن كلامه الفاتر الرزين لا يغنى شيئا فى
تخفيف ذلك الشقاء . وأنتى لكم ، وأنتم فى السعادة والنعيم
تمرحون ، أن تحسوا ما قد يحدث المزح من ألم وعذاب ؟
أما المريض الذى شفه الضنى فانه يحس الأذى مهما كان
صغيرا أو تافها . ولن يجدينى الآن أن اتكلف الرضى
والسرور . بل ليظهر الآن ما لو كتمته فى صدرى لكان فيما بعد
سببا فى ازدياد همومى ، بل لقد يسلمنى الى كمد يقتلنى على مهل .
« فدعونى الآن أرجع أدراجى . فما كان لى أن أبقى فى
الدار لحظة . بل الأجمل لى أن أنطلق الآن فالحق بأهلى وأقاربى
الذين خلفتهم وسط الشقاء ، لكى أسعى فى تحسين حالى
وحدى . أجل هذا هو رأي الذى لن أحيد عنه . ولهذا أريد
أن أعترف لكم قبل انصرافى بأمر كان فى وسعى أن أبقيه
سرا مكتما طوال السنين .

« ان ما لقيته من الوالد من التهم قد أثر فى أبلغ التأثير ،
لأنى رقيقة الاحساس شديدة الكبرياء ؟ فليس هذا ما
يليق بالخدامات ، بل لأنى حقيقة قد استشعرت فى قلبى ميلا

نحو هذا الفتى ، الذى قابلى اليوم ، منجدا ومنقذا ، ثم غادرنى
 فى الطريق ومضى ، فلم يزل بعدها ماثلا فى خاطرى . وجعلت
 أفكر فى الفتاة السعيدة التى اختارها قلبه . وحينما قابلته لى
 البئر بعد ذلك فرحت فرحا شديدا ، كائى قابلت أحد سكان
 السماء . ولهذا تبعته مسرورة حين طلب إلى أن أكون خادما .
 ولست أنكر أنى كنت أخدع نفسى أحيانا وأنا قادمة إلى هنا .
 فأصور لها أن قد لا يكون مستحيلا أن أصبح يوما به جديرة ،
 حين أصبح فى المنزل ذخرا وعونا لا يمكن الاستغناء عنه .
 « لكنى الآن أدرك البون الشاسع الذى يفرق بين الفتاة
 الفقيرة وبين الشاب ذى اليسار ، مهما رزقت من النشاط والفضل .
 » كل هذا أقصه عليكم كي تذكروا حقيقة ذلك القلب الذى
 جرحته كلمة قيلت مصادفة وعفوا ، وإنى لهذه المصادفة لشاكرة ،
 والا فما يكون مصيرى إذا أكنتم آمالى وأحلامى فى صدرى ،
 وأتظن حتى أراه يقتاد عروسه إلى الدار بعد قليل ، وكيف
 أقدر حينذاك على تحمل كل تلك الآلام فى الخفاء ؟
 « أجل إنى لسعيدة إذ أنذرت منذ الساعة بالذى أتوقع ،
 وسعيدة أيضا لأنى أفضت بما يكنه صدرى ، والداء بعد ما يمكن

علاجه ، قبل أن يتأصل ويستفحل ، والآن حسبي الذي قلته :
وليس لى الآن ما أبقى هاهنا من أجله ، يعلونى الخجل
والاضطراب بعد أن أدليت بمكنون سرى : وبالأمال الكواذب
التي كانت تجول فى صدرى ، وسأذهب الساعة ، ولن يمنعنى
من الذهاب هذا الليل البهيم تغشاه السحب القاتمة ، ولا الرعد
القاصف ، الذى يصم الأسماع هزيمة . ولا المطر الذى يتساقط
وابلا منهمرا ، ولا الرياح العاصفة وزئيرها المخيف ، تلك أشياء
قد مارستهما من قبل . حينما اضطررنا إلى الفرار ، يتعقبنا الأعداء
عن كشب ، فهأنا ذى ذاهبة الى هنالك ، ولقد الفت منذ نزلت
بنا هذه الكوارث ، أن مضى فى سبيل وليس فى حوذنى شيء .
اذن استودعكم الله . لن أبقى هنا لحظة أخرى .

ولم تكذب تنطق بهذه الألفاظ ، حتى تراجعت الى الباب .
متأبطه الحزمة الصغيره التى جاءت بها . لكن الأم بادرت
فطوقت الفتاة بذراعيها ، وصاحت بها وهى مندهشة حائرة :
« ويحك ما معنى هذا كله ؟ وما هذه الدموع التى لا أفهم لها
كنها ؟ كيف أدعك تبرحين الدار وأنت مخطوبة ابنى ؟ »
أما الوالد فهض متدمراً ضجرا ، ونظر إلى الفتاة وهى

تنتحب ، وقال متأففا : « هذا جزائي إذن على أن أبديت
منتهى البشاشة والملاطفة ، أن تكون هذه المنغصات هي آخر
ما أختم به يومي . إن أبغض الأشياء إلى نفسي بكاء النساء هذا
وإعواهن ، الذي يزيد في تعقيد مسائل كان من السهل حلها ،
بقليل من العقل والروية . فعليكم أن تجدوا المخرج لأنفسكم
من هذا ، أما أنا فذهاب إلى فراشي لاضطجع . » ثم تولى
عنهم ليذهب إلى حجرتة ، التي لم يزل سرير الزواج منصوبا
بها ، وكان من عادته أن يأوي إليها ليستريح .

لكن ابنه تعلق به ، وجعل يستعطفه قائلا : « لا تسرع
بالخروج أيها الوالد ! ولا يغضبك ما قالت الفتاة . فعلىّ وحدي
يقع إثم كل هذا الاضطراب ، وقد زاد الصديق الفاضل
الموقف حرجا ، على خلاف ما كنت أنتظر منه . فتكلم الآن
أيها السيد الجليل . فإليك أكل هذا الأمر كله . لا تزدنا نحن
فيه من آلام ومخاوف . بل اكشف القناع عن كل شيء .
وإلا فلن أستطيع في المستقبل أن أجلك وأعزك . إذا كنت
الآن تسلك طريق المكر ، بدلا من أن تصرف الأمور بما
عهدها فيك من عقل ومن حكمة . »

هنالك تبسم القسيس الجليل ضاحكا وقال : « لقد كان من العقل وقد كان من الحكمة أن استدرجت الفتاة ، حتى أدلت بذلك الاعتراف البديع ، وأظهرت من سرها ما كان خافيا . ألم يكن من نتيجة هذا أن استحالتم همومك فرحاً وسروراً ؟ فالآن لم يبق إلا أن تدلى أنت لها بما عندك ، ولا حاجة بك لأن يعينك في هذا ثالث . »

فتقدم هرمس الى الفتاة وقال لها في لطف وفي رفق :
« لا تندمى على ما أذريته من الدموع ، وما قد أحسست من ألم طارىء سرعان ما يزول . فقد كان في هذا إتماماً لسعادتي ؛ وأرجو أن يكون فيه إتمام سعادتك أيضا .

« إننى ما ذهبت الى الينبوع لكي أسأل الفتاة الغريبة أن تكون عندنا خادما . بل ذهبت الى هنالك لكي أنشد حبك . ولكنى ، وأأسفاه ! لم تستطع عيناى اللتان أغمضهما الحياء ، أن تبصرا أين يميل بك الهوى . وأين يدفعك قلبك . فلم تر العينان منك إلا الصداقة والأدب ، حينما كنت تحميننى فى مرآة ذلك الينبوع الصافى . ولقد كان فى قبولك أن تصحبنى الى المنزل نصف سعادتي المنشودة . والآن قد أكملت على النعمة ،

فبوركت وحييت ! »

هنالك نظرت اليه الفتاة وقد بلغ التأثر منها صميم القلب . فلم تمنعه حين تقدم اليها ليضمها ويلبسها . فقد كان في هذا بلوغ ذروة السرور ، وضمان لسعادة العمر التي ليس وراءها سعادة . وقد أفهم القسيس الآخرين حقيقة الموقف لكن الفتاة لم يكفها هذا بل تقدمت الى الوالد ، في أدب وفي ظرف ، وأكبت على يده فقبلتها رغم ممانعته . وقالت له : « إنك بما طُبعت عليه من عدل وانصاف ستعفو عن هذه الفتاة ، التي أذهلها ما سمعت وما رأت ، فجعلت تبكي بكاء الألم ، ثم أخذت تذرِف دموع الفرح ، فاصفح عما رأيت منها في كلا الحالين ، واثن لي بأن أنعم بكل ما أنا فيه الآن من بهجة وسرور ، وليكن ذلك الكدر الأول ، الذي كان اضطرابي بعض أسبابه : ليكن الأول والآخر ، وأما ما تعهدت الخادم المخلصة بأن تؤديه من خدمة ورعاية ، فهذا كله ستؤديه الكسنة الأمانة . »

فعانقها الوالد متأثراً وهو يخفي دمه ، وتقدمت الأم على مهل ، وقبلتها في عطف وحنان ، وأخذت بيدها تصافحها والدمع يتساقط من عيونهما دون أن يتحرك اللسان بكلمة .

هنالك تقدم القسيس الصالح ، دون أن يضيع لحظة ،
فاتزع من يد الوالد خاتم الزواج — ولم يكن هذا بالشىء السهل ،
لأن الاصبع السمينه جعلت اخراج الخاتم شيئاً عسيراً — ، ثم
انتزع من إصبع الأم خاتمها ، وعقد بالخاتمين خطبة الفتي
والفتاة ، وقال : « ليكن من حظ هذين الخاتمين الذهبيين ،
مرة أخرى ، أن يعقدا رباطاً وثيقاً ، يعادل الرباط الأول قوة
ومتانة ، إن هذا الفتي يحب هذه الفتاة حباً جما ، وهذه الفتاة
قد أقرت بأنها تميل اليه ، فأنا أعلن خطبتكما الآن ، وأبارككما
مدى الدهر . بموافقة الوالدين وشهادة صديقنا . »

وهنا انحنى الصيدلى ، وهو يدعو الدعوات الصالحة ، ولكن
لم يفته أن رأى عند ما ألبس رجل الدين الفتاة الخاتم ، أن فى
إصبعها خاتماً آخر فأدهشه أن رآه الآن كما رآه هرمن من
قبل لدى البئر ، فأثار همومه ، فقال الصيدلى مازحاً متودداً :
« هل هذه إذن هى الخطبة الثانية ؟ ومن يدرينا لعل العروس
الأول أن يحىء الى المذبح فيقيم الموانع دون الزواج ؟ »
فقال الفتاة : « دعونى أخصص لحظة لهذه الذكرى ، التى
يشيرها هذا الخاتم : ذكرى الفتي الطاهر ، الذى وهبني إياه ،

يوم ودعنى وسافر ، ولم يؤب بعدها إلى وطنه . وكأنا كان
عالما بما سوف يقع ، حين قذف به إلى باريس حبه للحرية ،
وشغفه بأن يلعب دوره فى هذا العالم المتقلب المتحول . فكان
نصيبه هناك السجن والموت . وقيل سفره قال لى : « فى
رعاية الله ! انى منطلق الساعة ، لأنى أرى كل شىء فى العالم قد
تحرك مرة واحدة . وقد تقطعت بالناس الأسباب ، وان
الشرائع الاساسية لأقوى الدول قد انفصمت عراها . وحيل
بين المالك القديم وبين ما يملك . وبوعدما بين الصديق
والصديق . واقترق المحب عن الحبيب ، وهأنذا اغادرك
ها هنا ، حيث أرجو أن ألقاك يوما ما . ومن يدرى ، فقد
يكون هذا آخر حديث أحدث به إليك . وما أصدق قولهم : إن
الانسان فى هذه الدنيا فى دار غربة . . . ولم يكن هذا القول
فى يوم أصدق منه فى يومنا هذا . فقد أصبحنا وليست الأرض
ملكنا لنا ؛ وكنوزها الغالية ذاهبة أدراج الرياح . والذهب
والفضة قد فقدوا ما كان لهما من حرمة وتقديس ، واستحلالا
الى صورة غير صورتها الأولى . وهكذا أصبح كل شىء فى
اضطراب وفى حركة ؛ كما نريد هذا العالم القائم أن يتحلل

ويتفكك — راجعا القهقري — وسط الفوضى والظلام
القائم ، لكي يلبس بعد ذلك ثوبا جديدا .

فأخلصى لى الحب : وان قُدر لنا أن نلتقى فوق أنقاض
هذا العالم ، فسنلتقى كشخصين جديدين ، قد كوَّنا تكويننا
جديدا ، وأصبحنا حَرِّين طليقين ، لا يخضعان لصروف
الأقدار . ولعمري كيف يقبل التقيد بقيد من استطاع أن
يعيش فى هذا الزمن العصيب ثم يخرج منه حيا ؟ .

أما اذا شاء القدر ألا يكون لقاء سعيد بعد هذه المحن
والأخطار . وأن لن يتاح لنا أن نتعاقق فى سرور مرة أخرى ،
عند ذلك فاحفظى ذكراى . واجعلى صورتى الخافقة أمام
خاطرك ، لعل فى هذا ما يبعث فى صدرك الهدوء والجلد ،
فلا يهملك بعدها أنزلت بك الكوارث أم غمرتك السعادة .
واذا استهواك منزل جديد ، وعلاقة جديدة ، فالعمى
شاكرة بما أعدته لك الأقدار ، وأخلصى الحب لمن يحبك ،
وقابلى الاحسان بالحمد والشكر . لكن حذار أن تسرفى فى
الحب ، خشية أن تحل كارثة جديدة فيؤودك وقع المصاب
المزدوج .

بورك لك في أيامك . ولكن حذار أن تنظري الى الحياة
 إلا كمتاع من الأمتعة . وليس كل متاع إلا خدعة وغرورا (١) .
 تلك كانت الوصية التي أوصاني بها الفتي ذو النبل . ولم يعد بعدها
 إلى . وفي هذه الفترة فقدت كل شيء . وذكرت ألف مرة مقال هذا
 وما أُنذرتني به ، والآن أيضا أذكر عبارته ، إذ أرى الحب قد هيا
 لي هنا سعادة جديدة . وأرى الأمل الجميل ماثلا أمامي باسم الثغر .
 « أعف عني أيها الصديق الهام ، إذا كنت أرتعد الساعة
 وأنا ممسكة بذراعك ، فان الملاح حين يضع رجله فوق أديم
 الثرى ، بعد الذي عاناه في أسفاره ، يحس بالأرض تخفق
 وتهتز تحت رجله ، مهما كانت ثابتة راسخة . »

هكذا تسكمت الفتاة ، ثم ضمت الخاتمين أحدهما إلى
 الآخر . فأخذ هرمن يتكلم بصوت فيه رقة النبل وشهامة
 الرجولة ، فقال : « أى دروتيه ! لئن كانت الكارثة شديدة
 فادحة ، فلتكن الرابطة التي تجمعنا اليوم أقوى وأشد . يجب
 أن تثبت وأن نصمد للحوادث ، وأن نحفظ بأنفسنا وبما ملكت

(١) ليس مجرد صدقة أن يكون هنالك شبه بين هذه العبارة وبين الآية (وما الحياة
 الدنيا إلا متاع الغرور) فان جوته كان يعرف القرآن ويشتمل ببعض من آياته .

إيماننا . فإن الرجل الذى يتزعزع ويضطرب فى هذه الأوقات
المرعزة ، إنما يزيد الخطب هولا واستفحالا ، أما الذى
يثبت ويدأب ، فإنه سرعان ما يلم شعث هذا العالم .

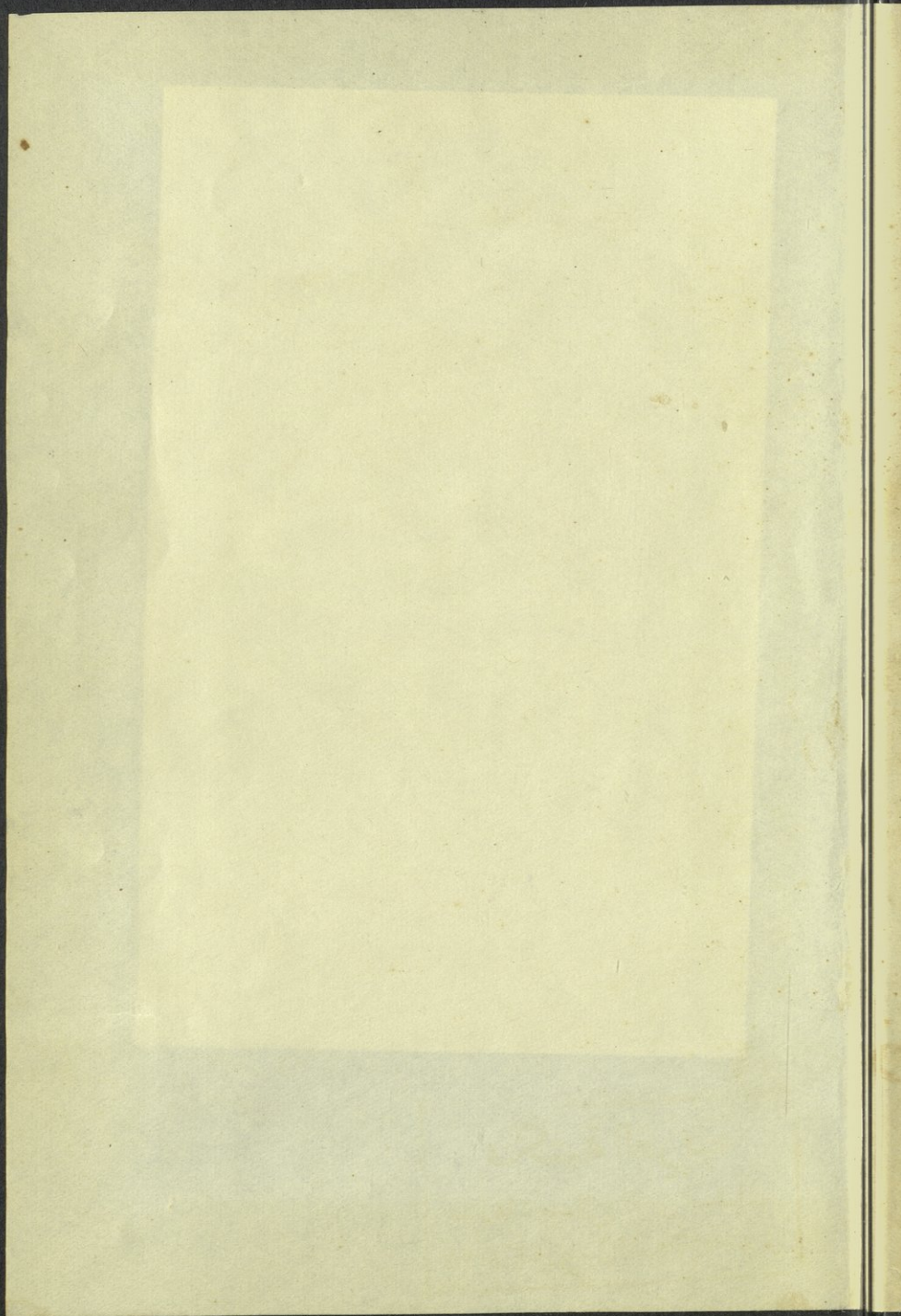
« وما ينبغي للألمانى أن يحاول نشر تلك الحركة الفظيعة
فى بلاده ، وأن يتردد من تجربة الى تجربة ، إن لنا مبادئنا وسننا
فلندكرها للناس صراحة ولنعلنها لهم ، ان الشعوب التى تثبت
على مبادئها ، والتى تجاهد فى سبيل الله وفى الذود عن الشرائع ،
وفى حماية الآباء والنساء والبنين ، أولئك يمدحهم الناس جميعاً ،
وان كان نصيبهم فى الحرب الهزيمة .

« اليوم قد أصبحت لى يادروتيه ! واليوم أصبح كل شىء
أملكه أعز على مما كان قبلاً ، فانى الآن لا أحافظ عليه أو أنعم
به فى حزن واهتمام . بل فى بسالة وقوة . ولئن تهددنا العدو
المغير ، فى العاجل أو فى الآجل ، فلتكوفى أنت أول من يقلدنى
سلاحى ويعمدنى للقتال ؛ ولعلمى أنك خير من يرعى الدار
ويرعى الوالدين الحبيين ، فانى سأعرض صدرى آمناً مطمئناً
للاعداء . ومتى أصبح جميع الناس يرون رأيى ، فهناك
تقف القوة أمام القوة . وننعم كلنا بنعمة السلام . »

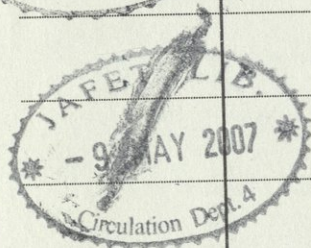
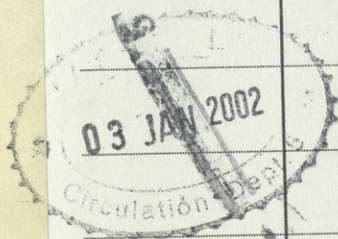
١٤٤ مكتبة العرب

مديرها : صلاح الدين البستانى

٢٨ ش كامل هدى (القجالة) القاهرة



DATE DUE



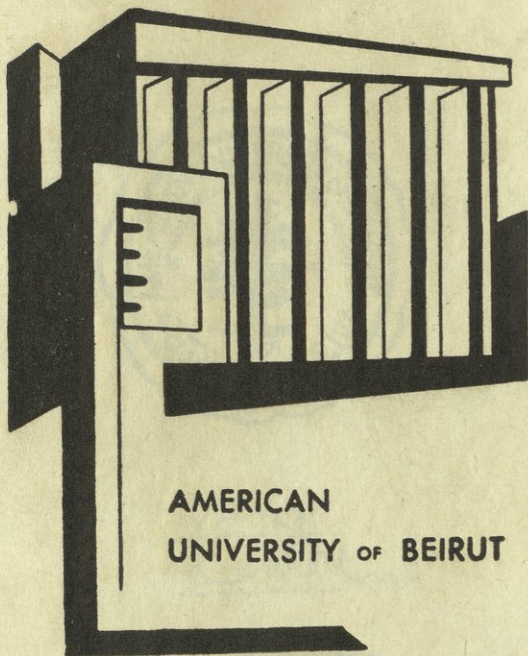
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

مكتبة محمد عوض

هرمن ودرونييه
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031015



AMERICAN
UNIVERSITY of BEIRUT

831

G599hA